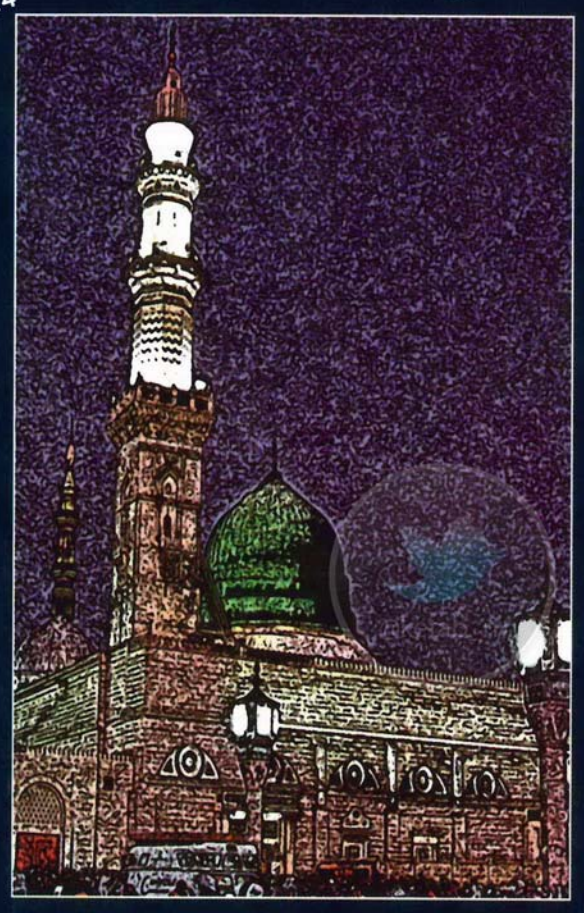
عبد الوهاب بن ناصر الطريري

لوحات نبوية

زوايا جديدة لقصص السيرة





كتاب الإسلام اليوم
26

لوحات نبوية

زوايا جديدة لقصص السيرة



مؤسسة الإسلام اليوم

إدارة الإنتاج والنشر

المملكة العربية السعودية

الرياض

ص.ب. 28577

الرمز: 11447

هاتف: 012081920

فاكس: 012081902

جدة:

هاتف: 026751133

هاتف: 026751144

بريدة:

هاتف: 063826466

فاكس: 063826053

info@islamtoday.net

www.islamtoday.net

لوحات نبوية

زوايا جديدة لقصص السيرة

عبد الوهاب بن ناصر الطريري

سلسلة إصدارات

الإسلام اليوم

الإنتاج والنشر

الإصدار

26

الطبعة الأولى 1428هـ

إهداء

إلى أول من فتق لساني بذكر الله عز وجل، إلى من غرس في قلبي إجلال الله وتعظيمه، ومحبة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وتوقيره، وسمعت قصص النبوة منه أول ما سمعتها، وتعلمت معانيها وعبرها منه أول ما تعلمتها.

إلى من رعى النشأة، وقوّم المسيرة، وحفز الهمة، واختصر عمره في عمري، فعصم الله به من السقوط في دركات الفشل، أو التخبط في متاهة الضياع.

إلى سيدي الوالد أقدم هذا العمل، سائلاً الله أن يجعل ثوابه له موفوراً متتابعاً، وأن يبارك في عمره، وينسأ في أجله، ويجزيه عني خير ما جزى والداً عن ولده.

مُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته:

تحية من عند الله مباركة طيبة، وبعد:

فهذه قصص من أحسن القصص، ليست تتبعاً تاريخيّاً لسيرة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم تروي أحداثها وحوادثها، ولكنها مشاهد مختارة من حياته صلى الله عليه وآله وسلم اجتمعت رواياتها حتى اكتملت في لوحات نبوية باهرة الجمال، ناطقة بأروع معاني الكمال، شاهدة بأن الله خلق نبيه في أحسن تقويم، فكان أجمل الناس خَلقاً وأعظمهم خُلقاً.

وأنت راءٍ في هذه المشاهد صوراً باهرة من عظمة الخُلق، وتكامل الشخصية، وتوازن الأدوار، وعفوية الحياة، بساطة في عظمة، ومثالية في واقعية، أبعد ما تكون عن التكلف والتعسف الذي تباعد عنه، وحذر منه: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾.

وهذه الفصول ليست بين كاتب وقارئ، ولكني وإياك قراء لجمال لوحات الحياة النبوية، نتتبع في إيقاعها اليومي حيوية الحياة، وضخامة الإنجازات في وعاء من السكينة النفسية، والحياة الهانئة المطمئنة، تزينها أجمل العواطف، وأصدق المشاعر، وأعذب المتع.

وحينما تكثف الرؤية وتضع المشهد تحت مجهر البصيرة، فإنك ستكتشف



مع هذه الزوايا زوايا أخرى، تنطق بدلالات تستوقفك لم تستوقف غيرك، ولا عجب فسيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم نهر غمر يغترف كل منه بحسب إنائه، فانظر بقلبك وحبك وإيمانك إلى لوحات الحياة النبوية لترى جمالات مبهرة تشرق أمامنا فتستنطقنا، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾.

فلنجعل التأمل في هذه اللوحات النبوية مذاكرةً مشتركة نتعاطى فيها روائع المعاني، وعظيم الدلالات التي تفيضها على نفوسنا، فإن مساحة الرؤية واسعة، وزوايا النظر متعددة، ولئن قرأت بعض ما رأيتُه فإني مشوقٌ أن أفيد منك ما رأيتَه، فذاك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحب الخلق إلى قلوبنا، وأجلهم في عيوننا، وأعظمهم حقّاً علينا، الحديث عنه أعذب الحديث، والخبر عنه أجمل الخبر.

سائلاً الله أن يرزقنا من محبة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ما ننال به كريم بشراه يوم قال: «المرء مع من أحب».

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

عبد الوهاب بن ناصر الطريري

altriri@hotmail.com

لوحات نبوية

زوايا جديدة لقصص السيرة

1

أخوكم

أحبّ عبدُ الله رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم كأشدّ ما يكون الحب، حتى شهد له بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «إنه يحب الله ورسوله»، وكان لحبه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتشهّى له كل طرفة طعام يراها تدخل المدينة؛ فربما جاء الأعرابي بعكة السمن أو العسل فيأخذها منه، ويهديها للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، فإذا جاءه صاحبها يتقاضاه الثمن جاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أعطِ هذا الثمن. فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ألم تهدِه إليّ؟». فيقول: بلى، يا رسول الله، ولكن ليس عندي ثمنه، فما يزيد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يضاحكه ويأمر لصاحبه بالثمن.

إن هذه الممازحة اللطيفة تعكس الإلْف النفسي والعشرة الجميلة بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصاحبه عبد الله.

بقي أن تعرف أن عبد الله هذا كان مبتلًى بشرب الخمر، مكثراً منها، وكثيراً ما أُتي به إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثَمِلاً من السكر؛ فيأمر بجلده، فجيء به يوماً كذلك، فلما جلده وانصرف، قال أحد الصحابة: اللهم العنْه، ما أكثر ما يُؤتى به. فإذا النبي صلى الله عليه وآله وسلم يردّ هذه المقولة: «لا تلعنوه، فوالله ما علمت إنه ليحب الله ورسوله، لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم».

دعونا نقف عند معانٍ من هذا الخلق المحمديّ لنرى العجب العاجب في روعة التعامل النبوي مع النفس البشرية:

● 1 - ألا يشدّ بصرك هذا التآلف، بل التمازج بين هذا الصحابي على ما وقع فيه من خطأ مع قمة السموّ والطهر ومعلم الناس الخير، إنه إلف وحب وممازحة وموادّة، مما يكشف لنا أنه لم يكن ثمّة في مجتمع النبوة تشطير للمجتمع، أو عزل لفئة منه لمعرة خطأ كان، وإنما الاندماج والتمازج بينهم على تفاوت مقاماتهم في الخير؛ فمنهم السابق، ومنهم المقتصد، ومنهم من ظلم نفسه، ولكن لم يكن أحد يعيش النبذ أو النبز أو الإقصاء وإنما كان التآلف والاحتواء، وبذلك تظل الأخطاء التي يقع فيها بعضهم محدودة الأثر والتداعيات لأنها محاصرة بهذا الجو التآلفي الكريم الذي لا يتيح لها التطور ولا التكاثر، وكلما عثر أحد بخطيئته آنس أيدي إخوانه تمسك بضبعيه أن يهوي من هذه العثرة أو ينقطع عنهم بسبب هذه الزلة.

● 2 - ما أعجب الإشارة إلى المساحة الإيجابية في نفس عبد الله مع أن المقام

مقام عقوبة على خطأ، وخطأ تكرر كثيراً، ولكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لفت النظر إلى ناحية إيجابية في نفسه وهو حبّه الله ورسوله، وتأمل الخصلة: إنها ليست منقبة خاصة بعبد الله، ولكنها الخصلة التي يشركه فيها كل مؤمن، فلا يصح إيمان إلا بحبّ الله ورسوله، ولكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أبرز هذه الخصلة وامتدح الرجل بها، وهو أسلوب تربوي فريد يترتب عليه توسيع مساحة الخير في النفوس، وتأكيد انتسابها إليه وارتفاعها به، وإن حصلت منها الهفوات فلا تكبّلها ولا تجترها للقاع، ولك أن تتصور نفس عبد الله هذا، وقد بلغته مقولة، النبي صلى الله عليه وآله وسلم عنه فأي نشوة ورفعة تستثيرها فيه تلك المقولة حتى لكأنما يعرج بنفسه إلى أفق أعلى يسمو به فوق هذه الخطايا والهنات؟! إن هذا لمن أقوى الأسباب للتخلص من هذه الخطايا والتأكيد لنفسه أن هذه هفوات عارضة وليست الأصل في حاله، ولا الحاكم لنا عليه، فالأصل فيه حب الله ورسوله.

إن الإشادة بالجوانب الإيجابيّة عند الخاطئين وتوسيع رخصة الخير في نفوسهم هو الأسلوب النبوي الكريم، وإن كنا نغفل عنه أحياناً فنجعل الأخطاء أسواراً مانعة، بل زنازين ضيقة نحبسهم فيها فلا نعرفهم، ولا نذكرهم إلا بذاك الخطأ أو تلك الهفوة، وننسى أن ذلك -وإن لم نشعر- معونة للشيطان عليهم. أما النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقد وصف ذاك على كثرة ما أُتي به إليه سكراً بأشرف الخصال وأجملها «إنه ما علمت يحب الله ورسوله».

● 3 - أن هذا الذنب خطأ ظاهر؛ بل كبيرة من الكبائر، لا مجال فيه لاحتمال الخطأ أو التأوّل، إنها الخمر التي لعن فيها النبي صلى الله عليه وآله وسلم

عشرة، ومع ذلك فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي أقام عليه حد الخمر قد حفظ حقه أن يُستطال عليه بأكثر من العقوبة الشرعية، ورأى ذلك من معونة الشيطان، ولفت الأنظار إلى مساحة الخيرية فيه بدل أن تظل مصوّبة إلى جهة الخطأ.

نقف أمام هذا المعنى لنرى كيف نلجّ أحياناً في الخصومة مع بعض إخواننا حول أخطاء ليست بهذا الوضوح ولا الضخامة؛ بل كثيراً ما تكون هذه الأخطاء في نظرنا هي محل اجتهاد، ويسعها اختلاف وجهات النظر، ومع ذلك نجد أنفسنا -ومن غير وعي أحياناً- نجرجر القضية حتى نجعلها خطأ شرعيّاً لا محل للاجتهاد فيه، ثم نبرّر لدَدَنا في الخصومة ومِراءَنا في الجدل بأنها من الدين وللدين، بينما الهدي النبوي حفظ حق من وقع في كبيرة من الكبائر وكرّرها وأكثر منها حتى قيل ما أكثر ما يُؤتى به، ومع ذلك لم يسمح النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يكون ذلك جسراً يعبر عليه إلى الاستطالة في عرضه بشتم لم يجعله الله عقوبة له. وبقي بعد ذلك الصاحب الذي يحب الله ورسوله ويألفه ويمازحه ويهاديه.

إنها معانٍ جميلة لو استشرفناها من هذا الهدي النبوي لاتسعت مساحة الخير، وحوصر كثير من الأخطاء، وقويت لحمة المجتمع، وعوفي من كثير من أمراض القطيعة المبررة بأنواع المبررات الخاطئة.



2

صفوة

عاد صلى الله عليه وآله وسلم من غار حراء بعد أول مقابلة مع روح القدس مؤذنة بدء تنزّل الوحي الإلهي، وقد أخذه الرّوع وخشي على نفسه، وكان من صنع الله لـه أن كان منقلبه إلى تلك المرأة العاقلة الرشيدة زوجه خديجة رضي الله عنها، فما إن قصّ عليها القصص وبثها مشاعره الإنسانية «لقد خشيت على نفسي»؛ حتى بادرته الجواب بوثوق جازم حازم مستشرف لسنّة إلهية هداها إليها نظر عقلي، ونضجِ عمري، واستقراء تاريخي، ومعرفة لَصِيقة بزوجها الذي عاشت معه خمسة عشر عاماً فخبرت دخيلتَه، وشفّت لها عشرته عن آفاق نفسه ومعدن أخلاقه، ولذا جاء جوابها هذا سريعاً حاسماً بقَسَم معظّم يدلّ على غاية الوثوق واليقين: «كلا والله لا يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلّ، وتُكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق».

● إنّ أمّنا خديجة رضي الله عنها وهي تدل على هذا الناموس الكوني، وهو أن الله يحفظ من عباده من يكون بهم قِوام العباد ونفعهم، فلا يخزيهم ولا يحزنهم، وأن الله إنما طبعهم على هذه المكارم السمحة لكيما يجعلهم أهل إعزازه وإحسانه، كما أنها دلت أيضاً على هذا الخلق المحمديّ الذي كان ملازماً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم منذ نشأته الأولى، وقبل أن ينـزل عليه وحي ربّه، ولذا فإن الأبرار أمثاله لا يخذلون أبدًا، وإذا نظرت إلى هذه الشمائل الكريمة التي ذكرتها خديجة -رضي الله عنها- وجدت أن القاسم بينها نفعُ الناس، وقضاء حوائجهم، وسدّ خلّتهم؛ فذو الرحم يوصل، والعاجز يُحمل، والمعدوم يُكسب، والضيف يُقرى، والنوائب تُقضى.

إنها أصول مكارم الأخلاق التي تصدر عن نفوس كريمة وقلوب رحيمة تتحمل هموم الناس، وتتلمس حاجاتهم وتقضي نُوَبهم، وتغيث لهَفَاتهم، وكل هذه كانت صفات فطريّة لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم قبل أن ينبّأ بها في الصحف الأولى، عرفتها خديجة رضي الله عنها عن خبرة عميقة، وصلة وثيقة، إنها صلة الزوج بزوجها.

● وثمة مشهد نبوي آخر كاشف عن هذه الحقيقة، وهو مشهد موسى عليه السلام- لمّا ورد ماء مدين، فوجدهم يسقون أغنامهم، ومن دونهم امرأتان تذودان غنمهما عن ورود الماء، وكان منظراً أثار استغرابه وتساؤله، ولذا قصد إليهما سائلاً: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾، ما الذي يجعل نفس موسى تستغرب وتستنكر هذا المنظر؟ إنها استقامة أخلاقية ترى حق الضعيف الرعاية والتقديم وليس الإقصاء والتأخير ﴿فَسَقَى

لَهُمَا﴾. إنها المبادرة السريعة لدواعي المروءة والشهامة والكرامة الأخلاقية، ولذا عبّر القرآن بالفاء التي تقتضي الترتيب والتعقيب، مما يوحي بسرعة الاستجابة لرعاية هذه الحال، وإنك لتعجب من رجل غريب في أرض لا يعرفها، وأناس لا سند له فيهم ثم هو لاغب مجهود، قادم من سفر طويل بلا زاد ولا استعداد، مطارَد من عدو باطش لا يرحم؛ فهو من أحواله هذه في شغل شاغل، ولكنه مع هذا كله استغرب ما تنكره أخلاقه، وتجاوب مع دواعي مروءته الفطرية، في حين أن أهل حيهما وجيرتهما لم يبالوا بهما ولم يهمهم شأنهما.

إن هذه المشاهد تدل على حقيقة مهمة وهي أن الله يصطفي لرسالاته العظيمة نفوساً عظيمة، ومن أعظم جوانب عظمتها الحدْب على الناس، وتبنّي قضاياهم، والسعي الحثيث في حوائجهم، وأن رحمتهم بالناس جعلتهم مثابة للضعيف والمعدوم؛ فكل ذي نائبة يجد منهم العون، ويتلقّى العطف والرحمة، ولذا فإن تكليفهم باستنقاذ البشرية من الضلال، وهدايتهم إلى الحق يلاقي في نفوسهم شوقًا إلى نفع الناس والبرّ بهم والإحسان إليهم، إنها قلوب كريمة عامرة برحمة الخلق والرأفة بهم.

إن هذا المعنى الجليّ الواضح في حياة أنبياء الله ورسله ينبغي أن يكون حاضراً في نفوس ورثة الأنبياء؛ فإنه بقدر تخلّقهم بأخلاق النبوة يكون أداؤهم لميراث الأنبياء؛ فأهل العلم والدعوة لا بد أن يكون لهم عمق اجتماعي يجعلهم ملاذًا للناس في قضاء حوائجهم، وتبني قضاياهم، والسعي في أمورهم، ورحمتُهم بالناس هي من آثار رحمة الله بخلقه ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ وبدون ذلك يكون دورهم في الأمة محدوداً وأثرهم في الناس منقوصاً.

لقد كان من سعادة أعمارنا أن عرفنا إمام عصرنا سماحة الشيخ ابن باز -رحمه

الله- فرأينا ثم ذاك التناغم الجميل بين أخلاق النبوة وميراثها في صورة رائعة من صور الاقتداء والتقفّي للأثر النبوي فكان -رحمه الله- آية في بذل نفسه وجاهه وماله في نفع الناس والعطف عليهم وقضاء حوائجهم، كما كان كذلك في تعليمهم وإرشادهم ودعوتهم ولذا عظم أثره، وكان له من المكانة في الناس ما لم يكن لغيره، ولا أرى أصحاب التأثير في الأمة إلا أولئك الذي جمعوا إلى علم النبوة هذه المكارم الأخلاقية النبوية؛ فرحم الله بهم الخلق وجعلهم للناس مثابة وأمناً.



3

غلام

ذاك موعد على فراش الموت حيث المريض المدنف فتًى يهوديّ في يفاعة سنّه كان يخدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيضع له وضوءه ويناوله نعله ويقضي حوائجه، فإذا النبي صلى الله عليه وآله وسلم يفتقده ثم يأتيه يزوره في مرضه، فيدنو منه ويجلس عند رأسه، ويجلس أبو الغلام وجاهه، وإذا النبي الكريم ينظر نظرة المشفق الرحيم إلى فتى يافع يودع الدنيا ويستقبل الآخرة فيهتف به إلى ما هو أحوج إليه في هذا اللحظة، وهو الدين الذي يلقى به ربه، دعاه إلى الإسلام وقال له: «أسلم، قل أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله».

تلقّى الفتى هذا النداء فإذا هو من محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي خدمه وخبره وعرف حاله، فعرف أن هذه حال الأنبياء، وليست حال الجبارين ولا المتقوّلين، ولكنه لا يزال مأسوراً إلى سلطة الأبوة القريبة منه، فجعل يقلّب طرفه وينظر إلى أبيه. ينتظر أن ›

يأذن له، وإذا بالنبي يعيد عليه وكأنها يسابق لحظات الحياة القليلة، فقال له أبوه: أطعْ أبا القاسم، قل ما يقول لك محمد، وإذا كلمات الحق تذرف من شفتي الغلام المجهود: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. أتى بالشهادة واستكملها، ولكنه استكمل أيضاً البقية القليلة من حياته، فلفظ آخر أنفاسه وتُوفّي في ساعته تلك.

وإذا النبي صلى الله عليه وآله وسلم يخرج من عنده مستبشراً بهداية هذا الغلام وخاتمته الحسنة، وهو يقول: ((الحمد لله الذي أنقذه بي من النار))، ثم أقبل على أصحابه يأمرهم قائلاً: ((صلّوا على أخيكم)).

إن ثمة مواضع تستوقفنا للتأمل في هذه القصة، فلك أن تعجب من هذه الخلطة بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم واليهود حتى إن بيته صلى الله عليه وآله وسلم يحتوي فتى من فتيانهم يلي من أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم الخدمة الخاصة طهوره ونعليه، ونحن على يقين أن الصحابة كلهم كانوا يتشوّقون لخدمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويتمنّون أن يشرف أولادهم بذلك، ومع ذلك وُجد متسعٌ لهذا الفتى اليهوديّ أن ينال هذا الفضل والشرف.

● إن ذلك يكشف النفسية الهادئة في التعامل مع الكفار -مشركين ويهود- فلم يكن ثمة توتر ولا توجّس فهذا النبي صلى الله عليه وآله وسلم يمر بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين واليهود فيجلس إليهم، ويتحدث معهم ويدعوهم ثم يمضي، بل هو صلى الله عليه وآله وسلم يزورهم في بيوتهم ويجيب دعواتهم، ويفتح بيته لزيارتهم، بل ويدني فتى منهم حتى يلي هذه الخصوصية في الخدمة.

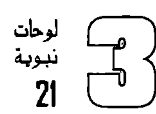


إن هذا كله مظهر قوة ووثوق، فإن هذه المخالطة أقصر الطرق لتعرّف هؤلاء على الدين وأهله، ولهدم الحواجز التي قد توجد في نفوسهم عن قبوله أو التعرّف عليه.

ولذا فإن هذا الغلام الذي تلقّى دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حاله تلك لم يستقبلّها خالي الذهن من معرفة الرسالة والرسول، فقد كانت خلطته اللصيقة بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم كاشفة له عن دلائل نبوته وصدقه في دعوته، ولذا أتت استجابته في هذه اللحظة الحرجة من حياته متكئة على معرفة سابقة وخلطة لصيقة.

● كما نلحظ مراعاة الجانب الإنساني في التعامل مع غير المسلمين، إنه هدي مَن بعثه الله رحمة للعالمين كل العالمين، فأسيرهم المحارب يُطعم، ومريضهم يُعاد، وميّتهم يُقام لجنازته إذا مرّت «أليست نفسًا!»، ولذا فإن زيارة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لغلام يهوديّ ليس بسيد ولا زعيم، ولكن خادم صغير لهي مشهد من مشاهد العظمة الإنسانية، والكرم الأخلاقي، والنبل المحمديّ، والذي تقفاه الصحابة والتابعون لهم بإحسان ففتحوا مغاليق القلوب، وأضاؤوا جوائحها بنور الله وهداه.

● ثم تتساءل عن سر ذلك الفرح الغامر، والبشر الطافح على محيّا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يحمد الله ويشكره «الحمد لله الذي أنقذه بي من النار»، ثم يعقد آصرة الأخوة بينه وبين أصحابه، ويحمّلهم مسؤولية العناية بجنازته «صلّوا على أخيكم».



نتساءل ماذا أفاد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من فتى صغير أسلم ثم مات من ساعته، فلن يشهد معهم معركة، ولن يكثّر لهم جمعًا، ولن يحوز لهم مالاً، ولن يخدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما كان يخدمه من قبل فبأيّ شيء يكون الفرح؟!

إن هداية الناس واستنقاذهم من دركات النار كانت قضية النبي صلى الله عليه وآله وسلم التي عاش لها، وارتبطت مشاعره بها، فرحه وحزنه، غضبه ورضاه، ولذا يفرح هذا الفرح، ويحمد ربه على هذه النعمة أن بشرًا قد اهتدى بعد ضلال، ونجا بدعوته من النار، وإن كان ذاك فتى أسلم ثم مات بعد من ساعته، إن نبيك الذي فرح هذا الفرح هو الذي يحزن أشد الحزن حتى يكاد يهلك أسفًا لمّا أعرض عن دعوته من أعرض ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾.

إن المؤثّرين في دعوتهم هم أولئك الذين ارتبطت دعوتهم بمكان الإحساس في نفوسهم، وظهر أثر تفاعلهم معها في مشاعرهم ووجدانهم، وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

● ثم تقف أمام الاستنفار الذي كان يعيشه النبي صلى الله عليه وآله وسلم لدعوته، بحيث لا يدع فرصة للدعوة والهداية والبلاغ إلا ظفر بها، ولو كانت صبابة الحياة لمريض مدنف يسابق عليه الموت.

أما ما ظهر في عيادة هذا المريض من سمو التواضع، وحسن العهد ولين الجانب، ولطف الترفق، فبعض مشاهد العظمة الأخلاقية لذاك النبي العظيم الكريم. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

●●●●●

4

[illegible]

عاد صلى الله عليه وآله وسلم إلى بيته حتى دنا من حجراته، وما نظن إلا أنه كان كالاً بعد يوم مثل كل أيامه يقضيه في دعوته وبلاغ رسالته، وأنه عاد مجهود البدن مجهود النفس بعد أن بذل للناس خلقه وبشره، وفضله وبره، ثم عاد إلى بيته أحوج ما يكون إلى مستراحه وأنسه ليريح بدنه ونفسه.

كان صلى الله عليه وآله وسلم يسير وقد ارتدى برداء نجراني غليظ الحاشية أداره على عنقه وألقى فضله على منكبه، حتى إذا وصل إلى حجرته وكاد أن يدخلها، إذا أعرابي من أهل البادية يسارع إليه حتى إذا أدركه جذب طرف ردائه من خلفه جذبة شديدة فاجأت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان من أثر هذه الجذبة الشديدة المفاجئة:

1 - اختل توازن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فتقهقر إلى الخلف حتى رجع في نحر الأعرابي. 〈

2 – انشق الرداء من أثر شدة الجذبة الأعرابية.

3 – غاصت حاشية الرداء في عنق النبي صلى الله عليه وآله وسلم فجعل أنس رضي الله عنه ينظر إلى عنق النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان عنقه أبيض وضيئاً كأنه إبريق فضة– فإذا حاشية الرداء قد أثرت في صفحة عنقه صلى الله عليه وآله وسلم من شدة جذبة الأعرابي.

لقد كان المتوقع حينئذ أن يمتقع الأعرابي لما جرى، وأن يعتذر عما حدث، وأن يتلطف للنبي صلى الله عليه وآله وسلم طالباً عفوه، ولكن هذا ليس الذي جرى، فقد نادى النبي صلى الله عليه وآله وسلم قائلاً: يا محمد.

إنه نداء بجفاء فالله يقول: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾.

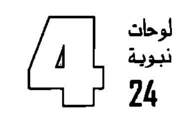
ثم طلب فقال: أعطني من مال الله الذي عندك. إنه الجفاء في المسألة أيضاً.

وبعد فأتمنى منك أن تتوقف لحظة عن القراءة وتغمض عينيك وتفكر في الإنفعال الذي يمكن أن تثيره متوالية المثيرات المستفزة هذه؟ جذبة شديدة أرجعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الوراء، وشقت الرداء، وأثرت في صفحة العنق الشريف، ثم نداء بجفاء، وطلب بإلحاف.

كثّف هذه الصورة في ذهنك وتخيل أي حريق من الغضب يكفي واحد منها لإشعاله في القلب فكيف بها مجتمعه، فكر في ردة الفعل المتوقعة لهذه المثيرات المتتابعة.

أما نبيك صلى الله عليه وآله وسلم فقد كانت ردة فعله عجباً عاجباً، سمت فوق ضوابط الانضباط، ومثل المثالية، إلى أفق أعلى إنه أفق العظمة المحمدية.

لقد التفت فلم يعرض، وضحك ولم يتجهم، وأحسن ولم يعاقب، يقول أنس



رضي الله عنه وهو شاهد هذا المشهد ((فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم ضحك ثم أمر له بعطاء)).

ننتهي من رواية هذه القصة، ولكننا بحاجة إلى أن نعيدها ونكرر إعادتها بصمتٍ متأمل وفكرٍ مستغرق، حتى تتشربها كل خلايا الوجدان. ونقف مع معان منها ثلاث وندع تداعيات المعاني لنفسك المتأملة وتفكيرك العميق.

● 1 - إن هذه المثيرات بفجائتها وجفائها تشعل نيران الغضب في النفس، وتثير ردة فعل غاضبة ومنفعلة، وغالباً ما تأتي ردة الفعل الغاضبة سريعة وفجائية كما كان المثير سريعاً ومفاجئاً.

لكن نبيك صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يتعامل مع المثيرات بقانون الفيزياء (لكل فعل ردة فعل مساوية في القوة معاكسة في الاتجاه) ولكنه كان يتعامل بقانون آخر، إنه قانون العظمة الأخلاقية ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

إن أشد ما يبهرك في تجاوب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنها ردة الفعل السريعة التلقائية ومع ذلك جاءت وكأنما هي معدة بعناية بالغة: إلتفات يدل على الاهتمام، تبسم يدل على الترحيب، إكرام وبذل يقضي الحاجة، وما ذاك إلا للعمق الأخلاقي في وجدان النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

إن التروي من هذا الدرس النبوي يطفئ نيران الغضب في القلوب، ويسكب السكينة في النفوس، ويجعل زمام انفعالاتنا بأيدينا بدل أن تكون أفعالنا بيد انفعالاتنا.

● 2 - إن الذي يقول لمن قال له أوصني: «لا تغضب»، فيكررها مراراً فيقول: «لا تغضب»، والذي يقول: «إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» هو صلى الله عليه وآله وسلم الذي يستثار هذه الاستثارة فلا يغضب، ويملك نفسه أيما تملك عند مثيرات الغضب.

إنه التناغم الرائع بين الدعوة والقدوة، والأقوال والأفعال، ليتحقق من ذلك التكامل المبهر في شخصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم في تمثل مكارم الأخلاق التي بعث بتتميمها، وإن الدعوات تظل باهتة منطفئة الأثر ما لم تتمثل واضحة متألقة في شخصية دعاتها.

● 3 - ألا نتساءل ما الذي دفع هذا الأعرابي أن يطلب ما يطلب بكل هذا الوثوق، بل ويتجاوز إلى حد الجفاء والإلحاف، ألا يخاف عقوبة؟ ألا يخشى بطشاً؟ إن الجواب بوضوح أنه كان يعيش في خفارة أخلاق محمد صلى الله عليه وآله وسلم التي أعطته الأمان والثقة ليعبر عما في نفسه، ويطالب بما يظنه حقه. وليعيش شخصيته كاملة لا يحجمها الخوف، ولا يشوهها الإذلال، ولذلك فإن أولئك الذين كانوا يطالبون بحقوقهم هم الذين أدوا واجباتهم وحملوا إلى العالمين رسالة نبيهم، يرخصون لها أغلى ما يملكون مهجهم التي بين جوانحهم بعد أن ملكها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالتربية العالية التي تبني الشخصية، وتعزز الثقة، وتشعر كلاً بقيمته، وإنسانيته، وأهميته، فكان كل واحد منهم شخصية سوية واثقة واضحة معبرة. أما عند ما يسكت الخوف الألسنة فإن القلوب تصبح مدافن للأحقاد...





5

الأشعريون

رفقة طيبة كريمة هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكانوا عنده أهل عبادة ونسك، تعرف منازلهم بالليل لدويهم بالقرآن، وأهل مرؤة وإيثار، فإذا قل طعام عيالهم جمعوا ما عندهم في ثوب واحد ثم قسموه بينهم بالسوية، مع صبر جميل على الفقر وقلة ذات اليد، فلما كانت غزوة تبوك واستنفر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الناس لها جاءه الأشعريون بأشواق الجهاد والشهادة يطلبون أن يحملهم معه جنودًا في هذه المعركة، حيث كانوا لفقرهم لا يجدون ما يرتحلونه في هذا السفر الطويل، ووافق حضورهم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وطلبهم هذا الطلب وهو غضبان، ولعل ذلك بسبب مزيد انشغاله واهتمامه بإعداد هذا الجيش الذي كان أكبر جيش جهزه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولذا أجابهم جواب المغضب: «والله لا أحملكم على شيء». فمضوا ›

من عنده، وفي قلوبهم حزن شديد، مخافة أن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد وجد عليهم في نفسه، فبينا هم كذلك إذا بلال بن رباح يناديهم ويدعوهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلما عادوا إليه إذا بخمس من الإبل عظام سمان حسان فدفعها إليهم، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: ((إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحملكم على هؤلاء فاركبوهن)). فانطلقوا بهن، ثم لم يلبثوا أن أقبل بعضهم على بعض وقالوا: إن تغفلنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن يمينه ولم نذكره بها، والله لا يبارك لنا فيها، ولا نفلح بعدها أبدًا، فلنرجع إليه فنذكره بيمينه تلك. فرجعوا إليه صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: يا رسول الله إنك حلفت ألا تحملنا، وقد حملتنا، فظننا أنك نسيت يمينك. وإذا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي وافوه قبل قليل مغضبًا يقبل عليهم بلطفه وبشره المعهود قائلاً: ((لست أنا حملتكم، ولكن الله حملكم، وإني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها إلا أتيت الذي هو خير، وكفرت عن يميني)). فطابت عند ذلك قلوبهم وأنست نفوسهم وفاؤوا إلى الطمأنينة والبشرى.

وبقي أن نستشرف معاني من هذه القصة الملهمة منها:

● 1 - الغضب النبوي في هذا الموقف هو جزء من الطبيعة البشرية، ظهر من النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ليؤكد اللافتة الضخمة في أداء النبي صلى الله عليه وآله وسلم لدعوته. ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ فيحدث منه الانفعال الغضبي ليشرع لأمته ما تفعله حال الغضب، كما ينسى ليُشرع

لأمته ما تفعله حال النسيان، ولتعلم الأمة عظيم حكمة الله تعالى يوم جعل الرسالة والقدوة للبشر بشرًا مثلهم، له غرائزهم ومشاعرهم وانفعالاتهم.

● 2 - الغضب النبوي في هذا الموقف هو الحالة الاستثنائية التي تُبرز عظمة القاعدة العامة في حال النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان شديدًا في امتلاك نفسه عند الغضب. وليتضح من هذا الموقف الاستثنائي أن صفح النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحلمه في مواقف الغضب لم يكن لكونه ذو طبيعة ملائكية لا تقبل هذا الانفعال بحيث يستثار فلا يغضب، بل لأنه كان يغضب كما يغضب البشر ولكنه يملك نفسه عند الغضب فيكظم الغيظ ويعفو ويُحسن. وكانت عظمته الأخلاقية تجعله مسيطرًا على انفعالاته في أحواله جُلِّها.

● 3 - لم يأتِ الأشعريون حالاً تستوجب الغضب، إنهم لم يطلبوا مالاً يتخولونه، أو متاعًا يتأثلونه، أو مغنمًا يحوزونه لأنفسهم يتكثرون به، إنهم أتوا ليعرضوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دماءهم التي خزنوها في عروقهم، ومهجهم التي أكنتها جوانحهم، رخيصة في سبيل الله تعالى، ويسألونه ما يحملهم إلى حيث تسفك الدماء وتزهق المهج وتُباع الأنفس على الله تعالى، فما بال النبي صلى الله عليه وآله وسلم غضب على هؤلاء وهو أهل العفو والصفح والتحمل لغيرهم من الأعراب الذين كانوا يسألون ويلحفون في المسألة، ويُعطون فيستكثرون من العطاء، ومع ذلك يستقبل إلحافهم المضجر بخلقه السمح السجيح «لو كان لي عدد هذه العضاة نعمًا لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا جبانًا»؟



إن ذلك هو تصرف النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع من يحبهم ويحبونه، فهو يحتملهم ويحتملونه، ويعذرهم ويعذرونه، ويعطي آخرين من ماله وخلقه أكثر من أولئك لا لأنهم أحب إليه ولكن لأنهم أحوج إلى التألف والرفق لحداثة عهدهم بالإسلام أو قلة خلطتهم بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولذا قال: «فوالله إني لأعطي الرجل وأدع الرجل، والذي أدع أحب إلى من الذي أعطي، ولكن أعطي أقوامًا لما أرى في قلوبهم من الهلع، وأكل أقوامًا إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير..»، إن هذا العطاء يشمل العطاء من المال ومن الخلق ومن التعامل، ولذا إذا أطلقت نفسك على سجيتها فاحترس عند التعامل مع مَنْ لا يعذرك.

● 4 - روعة الموقف الأخلاقي المُبهر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي اتخذ موقفًا معلنًا مؤكدًا باليمين أنه لا يعطيهم «والله لا أحملكم»، ومع ذلك رجع عن هذا الموقف بغاية السرعة والتلقائية والصحة النفسية العالية، ولم يجد غضاضة في الرجوع عن موقفٍ أعلنه وأقسم عليه للانتقال إلى خيارٍ أفضل، وترك ذلك القرار إلى قرار أصلح، كم تنهزم إراداتنا حين نتخذ موقفًا في لحظة انفعال ثم يكبلنا هذا الموقف عن الوثوب إلى مواقف أفضل؛ حتى لا يحسب علينا رجوعٌ أو تراجع، ولو كان ذلك موقف أبٍ مع أبنائه، أو معلمٍ مع طلابه، أو رئيس مع مرؤسيه.

وكم رأينا من لجّ في غواية أو خطأ وتحمل خسارة أو دمارًا لأن الشيطان نفخ في منخره، وعظم في نفسه أن يرجع عن موقفه وإن استبان خطأه، أما معلم الناس الخير فقد أطلقها مدوية ناصعة «إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها إلا كفرّت عن يميني وأتيت الذي هو خير».



● 5 - ألا يشدّك حتى تخفق أعماق وجدانك حال تلك النفوس الملائكية الشفافة الطهور التي كانت تمشي على الأرض وكأنها تحلق بين قناديل الجنة، أيُّ إيمانٍ وصفاءٍ ويقين أترعت به قلوب الأشعريين، فلم تجد على نبيها صلى الله عليه وآله وسلم أدنى موجدة، وإن غضب ومنع وتألى على ذلك وأقسم، وإنما كان الذي وُجُد في نفوسهم عظيم الشفقة على الرسول والتعظيم لكلامه، حيث عادوا على أنفسهم باللائمة إذ ظنوا أنهم أغفلوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن تلك اليمين، وأنهم يتحملون مسؤولية تذكير النبي صلى الله عليه وآله وسلم بها، فينقلبون إليه معتذرين مذكرين بتلك اليمين.

إنها الصورة الرائعة للصفاء القلبي والإشراق النفسي، والإيمان الحق بالرسالة والرسول.

ذاك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي اصطفاه الله لرسالته، وهؤلاء هم الذين آمنوا معه واصطفاهم الله لصحبته.. ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ...﴾.

● 6 - هذا الموقف الذي صدر من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم سُبق بمواقف كثيرة في الرفق وغرس الحب وملء النفوس بأحاسيس الرعاية، ولذا فعندما يأتي هذا الموقف مسبوقًا بذلك لا يُحدث صدمة أو هزة وإنما يأخذ حجمًا محدودًا، ويفسر تفسيرًا حسنًا، إنها عملية سحب قليله من رصيد عاطفي كبير تم إيداعه.



6

مهنة أهلك

هي إطلالة على البيت النبوي، ذلك البيت الذي أذهب الله عنه الرجس وطهره تطهيرًا، إطلالة من كوة فتحتها أمنا عائشة رضي الله عنها حينما توارد عليها السؤال من عدد من التابعين: ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصنع في بيته إذا كان عندك؟ إنه تساؤل عن هذه الشخصية العامة كيف تكون في هذه الحالة الخاصة، كيف يكون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي يعيش خارج بيته متصديًا لقضايا الأمة متحملاً أعباءها فإذا دخل بيته وأغلق باب وخلا بأهله فكيف يكون؟ وماذا يصنع؟

ولقد تلقت عائشة رضي الله عنها السؤال بحفاوة واهتمام، وأشرعت نافذة على بيت النبوة لنرى منها النبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الحالة الخاصة في بيته ومع أهله، فإذا بها تصف بهذا الوصف الوجيز البليغ قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه

وآله وسلم إذا خلا في بيته ألين الناس، وأكرم الناس، كان رجلاً من رجالكم إلا أنه كان ضحاكًا بسامًا، وما كان إلا بشرًا من البشر، كان يكون في مهنة أهله -يعني خدمة أهله- يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه، ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة، ولا رأيته ضرب بيده امرأة ولا خادمًا)).

إنها باقة معطرة من الصفات النبوية أحسنت أمنا عائشة -رضي الله عنها- رصفها في هذه الجمل الوجيزة وبهذا البيان البليغ. وبقي أن نفتح أبصار البصائر على معانٍ عظام.

● 1 - ((ما كان إلا بشرًا من البشر)) لا أحسب أن أمنا عائشة رضي الله عنها كانت تقرر بشرية النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأنه ليس ملكًا بل بشرًا رسولاً، ولكنها كانت تقرر معنى أخص من ذلك، وهو بشريته في التعامل الأسري بحيث أنه صلى الله عليه وآله وسلم يدخل بيته ليس على أنه القائد أو الزعيم أو الإمام ولكن على أنه الزوج ليعيش حياة السكن الزوجي مع أهله. فتجتمع معاني العظمة المحمدية في عظمة التعامل الزوجي، وأنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يعيش في بيته سمته الذي يلقى به الناس ولكن يعيش بساطة الحياة الأسرية وعفويتها فلا ترى فيه زوجه إلا الزوج الواد الرحيم، وهو صلى الله عليه وآله وسلم سيد ولد آدم وإمام البشرية والعظيم لا تمتلئ الأعين من النظر إليه مهابة وإجلالاً ولكنه يعيش في بيته ومع أهله زوجاً أولاً.

كم ننسى هذا المعنى النبوي العظيم حينما نصطحب معنا إلى بيوتنا المعاني

والألقاب الخارجية ليعيش أحدنا في بيته على أنه صاحب السعادة أو الفضيلة.. مع أن هذه الألقاب تخلع عند الباب ليعود من كان كذلك بشراً من البشر.

● 2 - «كان يكون في مهنة أهله» يثب إلى ذهني سؤال ثاقب يقول، وهل كانت أمنا عائشة رضي الله عنها تشكو كثرة العمل ومشقته حتى يكون عمل النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بيتها ومعونتها وخدمتها؟ أما كانت حجرتها متقاربة الجدر صغيرة المساحة بحيث لم يتجاوز طولها عشرة أذرع وعرضها سبعة أذرع (5×3.5 أمتار تقريباً)، وأما العمل فيها فقد كانت تتصرم الشهران بتمامها وما أوقد فيها نار لطعام يصنع، فهل ثمت عمل يحتاج إلى جهد فضلاً عن أن يحتاج إلى معونة بحيث يكون النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بيته مشغولاً بمهنة أهله؟

إن الجواب عن هذا التساؤل أن نبيك صلى الله عليه وآله وسلم ما كان يصنع ما يصنع لكثرة الشغل وجهد العمل، ولكن هناك معنى أعمق وهو المواساة والإشعار بالمشاركة التامة في الحياة الزوجية وتحقيق أحد معاني السكن إلى الزوجة ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ ولم يقل: لتسكنوا معها.

إن هذه الأعمال اليسيرة في المنـزل تصل إلى قلب الزوجة مشفوعة بمذكرة تفسيرية تضج بمعاني الحب والمودة والرحمة، وتشعر الزوجة بالدنو القريب إلى زوجها، والامتزاج الروحي والعاطفي.

إن كون الرجل في مهنة أهله بأي عمل وعلى أي صفة رسالة حياة تقول: هو بيتنا جميعاً كما هي حياتنا جميعاً، وإن معاني الالتحام الزوجي تنسجها هذه اللمسات المعبرة، فيكبر في عين زوجته بقدر تواضعه، ويعظم في نفسها بقدر بساطته.

● 3 - إننا نطل من هذه النافذة على البيت النبوي فنراه صغيراً في مساحته، بسيطاً في متاعه، ولكن الخلق النبوي العظيم جعله وعاءً كبيراً مترعاً بالأنس والبهجة، ترن فيه الضحكات، وتشرق البسمات ويتدفق ينبوع غامر من السعادة والإبهاج «كان رجلاً من رجالكم إلا أنه كان ضحاكاً بساماً».

ليس في بيت النبوة التواقر المتكلف، ولا التزمت المقيت، ولا التجهم العابس، ولكنه حبور الضحك وإيناس التبسم، ومتعة الحياة الطيبة التي تملأ البيت حبرة وسروراً حتى كأنما يعيش أهله في زاوية من الجنة.

● 4 - إن هذا الفن الراقي في التعامل الزوجي، والمبادرة من الزوج إلى المشاركة المعبرة والإيناس المبهج سوف يجعله يحتل المساحة الأكبر من قلب زوجته ووجدانها، إن هذا التعامل الرفيع يجعل لحضوره فرحة وأنساً، ولغيابه وحشة وفقداً، وسيكون من المرأة بمكان.

إن على الذين يشتكون برودة الحياة الزوجية وجفافها أن يتعلموا من هذا الدرس النبوي أن الدماء تتدفق حارة في حياتهم بمثل هذه اللمسات الساحرة، حينها لن يبقى في قلب المرأة ووجدانها مساحة شاغرة فقد ملأ ذلك كله زوج أشعرها بالمشاركة الحقيقية في الحياة، ولون يومها بالبسمات.

● 5 - يبهرنا هذا التوازن في الحياة النبوية فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم مع الناس أكثرهم تبسماً، وفي بيته أيضاً ضحوك بسام، وكان مع الناس كالريح المرسلة بالخير، وفي بيته في مهنة أهله، وكان خير الناس للناس، وخيرهم لأهله.

إن هذا التوازن يفتقد عند أناس يبذلون المجاملات الرقيقة بسخاء في تعاملهم العام، ولكنهم يخزنون عبوس وجوههم، وقترة نفوسهم لزوجاتهم، فلا يرين إلا قتامة التجهم، وملالة التضجر مع أنهن أولى الناس بالبشر وحسن الخلق، أما نبينا صلى الله عليه وآله وسلم فقد وسع الناس بحسن خلقه وكان أهل بيته أسعد الناس بهذا الخلق.

● 6 - هذا الدرس النبوي رسالة مفتوحة إلى كل من أساء فهم القوامة واختصرها في التعالي الأجوف، وبسط مظاهر التسلط بحيث لا يرى إلا مقطباً، ولا يسمع إلا آمراً أو محذراً.

● 7 - بقي أن نسترضي ربنا لأمنا عائشة التي كان من حكمة الله وصنعه لنا أن تبقى بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم نحواً من نصف قرن نافذة مفتوحة على بيت النبوة ترى أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم منها هدي نبيها وهداه، فرضي الله عنها وأرضاها وجزاها عن أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم خير الجزاء وأوفاه.



7

أم خالد

أما اسمها: فأمة بنت خالد بن سعيد بن العاص. كنّاها أبوها وهي طفلة: أم خالد.

وأما عمرها: فأول سنوات وعي الطفولة البهيج.

ولدت في الحبشة، وتفتّح وعيها على أبيها وأمها مهاجرين في أرض الغربة كله، ترويها وتستعيد ذكراها الجميلة، وتتمسك بالأثر الباقي منها ما استمسك معها.

كان من شأن خبرها ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقسم ثيابًا على أصحابه، فلما فرغ بقي بين يديه كساء صغيرٌ مخططٌ بأعلام صفراء وخضراء وحمراء، وكان الكساء جميلاً زاهيًا علقت به الأعين، وإذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لأصحابه: «من ترون أن نكسو هذه؟».فسكت الصحابة رضي الله عنهم إكرامًا لرأي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وانطلقت في الأذهان أسئلة وتساؤلات: من

التي سيؤثرها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بهذا الكساء، ومن التي سيختارها له؟!

ويجيء الجواب عن السؤال من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قائلاً: ((ائتوني بأم خالد)). فذهب الداعي إلى أبيها يخبره أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعو بنيّته، فجاء بها أبوها يحملها بين يديه، حتى وضعها بين يدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فيقبل عليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم وينشر الخميصة، ثم يلبسها إياها بيديه الكريمتين، حتى إذا احتوى الكساء جسدها الصغير، والتمعت في عينها فرحة الطفولة بالجديد، جعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم يشاركها فرحتها ويتفاعل مع بهجتها، فيرفع بيده الشريفة أعلام الثوب الملونة، ثم يتطامن بهمّة إلى همّها، وبلهجته إلى لهجتها، ويلثغ بلسانه كما تلثغ بلسانها قائلاً: ((يا أم خالد سنا)) أي: هذا جميل وحسن، بلغة الحبشة التي تعلمتها أم خالد حيث وُلدت.

ثم عقّب النبي صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك يدعو ويكرّر لها الدعاء: ((أبلي وأخلقي ثم أبلي وأخلقي ثم أبلي وأخلقي))، وألفت الطفلة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنست به، فجعلت تتحسس بيدها الصغيرة ما يلفتها في الجسد النبوي المبارك، وكان مما لفت انتباهها خاتم النبوة بين كتفيه، فذهبت تلعب به، وتتحسّسه بأصابعها، فنهرها أبوها على لعبها هذا إجلالاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإذا العطف النبوي يغلب العطف الأبوي، فيقبل عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم قائلاً: ((دعها)).

فلتعبث الطفلة ما شاءت أن تعبث، ولتلعب ما شاءت أن تلعب، فثم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وثمة الرحمة واللين الأبوة.

وتكبر أم خالد رضي الله عنها، وتكبر في قلبها معاني هذا الموقف وذكراه الحسنة، فتتمسك بالأثر الباقي من هذا الحدث، وتحفظه لها حتى حالت ألوانه، ودكنت أعلامه، فهو يحفظ لها بركة كفّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وروعة ذلك اللقاء.

●●● إن هذا الموقف موح بالدلالات والمعاني المعبرة:

● 1 - كيف اتسع وقت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليهتم بشؤون أصحابه الخاصة جدّاً حتى ليجعل من همه إبهاج أطفالهم، وإدخال السرور على نفوسهم، ومشاركة الأطفال مشاعر الفرح الغامر بأشيائهم الصغيرة في عيوننا، الكبيرة في عيونهم.

إنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يعيش فراغًا في الوقت، ولا قلة في الأعباء، فهو المتصدي لأعظم مسؤولية، والمتحمل لأثقل أمانة؛ ولكن هذه الأشياء لها أهميتها في مقياس العظمة الأخلاقية المحمدية، ولذا أفسح لهذه المهمة في وقته وقلبه ومشاعره، فهو المبعوث لإسعاد البشرية في دنياهم وأخراهم، وهو الذي دلّ أمته على أن من العمل المبرور والصدقة المتقبلة: «سرور تدخله على قلب مسلم».

● 2 - كان يمكن أن يكتفي صلى الله عليه وآله وسلم بإرسال الخميصة إلى أم خالد، ولكنه باشر هذا الأمر بنفسه وبكل تفاصيله، ليكون هذا العمل -وهو إسعاد النفس البشرية وإدخال السرور إليها- سنة نبوية تُقتفى، وأسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا، ولذا فإنك واجد لهذه اللفتة

الجميلة في سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخوات كثرا تشبهها، توالي تأكيد هذه السنة، وتعيد معاني هذا المشهد.

● 3 - البراعة النبوية في تحويل الفعل الجميل إلى باقة من الأفعال الجميلة المعبرة، بدأها صلى الله عليه وآله وسلم بطرح التساؤل لمن يعطى الكساء. مما يوحي بالأهمية والانتقاء، ولذا تحوّل الكساء إلى وسام شرف.

ثم طلبها صلى الله عليه وآله وسلم لتحظى باستلامه منه، ولم يرسله إليها.

ثم تولى صلى الله عليه وآله وسلم بنفسه إلباسها الكساء.

ثم أتبع ذلك بمؤانستها وملاطفتها ومشاركتها فرحتها الطفولية.

ثم الدعاء لها، وتكرار ذلك الدعاء.

ثم إدناؤها وتقريبها حتى تلامس جسده، وتلعب بما يلفت اهتمامها منه.

ثم تقريره لذلك بقوله لأبيها: ((دعها)).

إنه درس نبوي يبين أن صنائع المعروف كما هي كرم وأريحية فهي فن وحسن أداء.

● 4 - المنهج النبوي الكريم في التعامل مع الطفولة في مظاهر:

أ - الحفاوة والإيناس والملاطفة والإسعاد.

ب- التقرب والتآلف مع الطفولة، بحيث تدنو وتقرب حتى تلاعب اليد الصغيرة الجسد النبوي الكريم.

ج- الرفق والبعد عن النهر والجفاء ((دعها)).

إنها اللفتات النبوية الكريمة التي تراعي أخص مشاعر الطفولة، وتوليها هذه العناية والاحتفال.

● 5 - الأثر البالغ في هذه المعاملة النبوية الكريمة مع طفولة أم خالد على أبويها.

ليت شعري ما كان يمور في قلب خالد بن سعيد، وهو يحمل ابنته إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي أرسل يدعوها إليه؟!

ماذا كان يلمع في عينيه، وهو يرى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يكسوها بيديه؟

وكيف طفح البشر على وجهه، وهو يسمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدعو لها ويمازحها؟

إن إكرام الصغار إكرامٌ لكبارهم، والبر بهم برٌّ بأهليهم وذوي قرابتهم.

● 6 - معجزة نبوية عظيمة؛ حيث ظهر أثر دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم «أبلي وأخلقي» وهي دعوة بطول العمر، فعُمّرت أم خالد رضي الله عنها حتى كانت آخر من مات من الصحابيات رضي الله عنهن.

● 7 - إذا رأيت هذه القصة وتصورّت أحداثها وكثفتها في ذهنك حتى كأنك ترى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يفعل هذا كله، ثم لم تحسّ في شغاف قلبك مثل القشعريرة شوقًا إلى نبيك صلى الله عليه وآله وسلم ولهفة إلى محيّاه، فإن في قلبك خللاً يحتاج منك إلى إعادة تأهيل، ولن يكون أفيد لك من مزيد التقرّب إلى نبيك صلى الله عليه وآله وسلم والتعرّف عليه من خلال هذه المشاهد النيّرة المعبرّة، فإن صادفت في القلب حياة فإنها لتأخذ بمجامعه وعُراه.

●●●●●



سنة حسنة

تعالى النهار ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مجلسه المبارك مع أصحابه، إذ أقبل عليه قوم من الأعراب قطعوا مسافة شاسعة، وشقة بعيدة؛ ليفدوا إلى الرسول الذي آمنوا به واتبعوه، نظر إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرآهم حفاة الأقدام، عراة الأجسام، ليس عليهم ما يُلبس من الثياب، إنما هي أكسية قد شقوا أوساطها ثم شدوها عليهم، أو عباءٌ التحفوها تستر بعض أجساد هزلى قد أمضها التعب، وأضناها الجهد، وذوت من القلة والجوع.

نظر نبيك إلى هذه الأجساد العارية المجهودة فإذا بوجهه الكريم يتلون ويتقبض تألماً وشفقة عليهم، ورحمة بهم، لما يرى بهم من الفاقة والجهد، ثم توجه مسارعاً إلى بيته فلبث فيه ما شاء الله أن يلبث ثم خرج فأمر بلالاً فأذّن، ثم أقام فصلى بالناس الظهر، ثم صعد منبره وخطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإن

الله أنزل في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، و ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من صاع بره، من صاع تمره)). حتى قال: ((ولو بشق تمرة)). فحث الناس على الصدقة ورغبهم فيها، ثم جلس ينتظر صدقات أصحابه لإخوانهم الوافدين على جهد وفاقة، فأبطئوا عنه ومرت لحظات الانتظار متثاقلة بطيئة، ورسول الله يعيش قلق الترقب باهتمام الراحم الشفوق، حتى رئي أثر ذلك في وجهه الكريم المبارك، فبينا هو كذلك إذ جاء رجل من الأنصار بصرة من فضة تملأ ما بين أصابعه، حتى كادت كفه أن تعجز عنها بل قد عجزت، فقال: يا رسول الله، هذه في سبيل الله عز وجل. وإذا بهذه البادرة تكسر ثقل الانتظار وقلق الترقب وتستنفر الناس لما سبق إليه هذا الرجل، فقام أبو بكر فأعطى، ثم قام عمر فأعطى، ثم قام المهاجرون فأعطوا، وتتابع الناس حتى كان بين يدي رسول الله كومين من طعام وثياب، فتهلل وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجرى فيه ماء السرور، فإذا وجناته تبرق، وإذا وجهه -وكان أبيض وضيئاً مشرباً بحمره- يضيء كأنه آنية فضة مطهمة بالذهب، فرحاً وسروراً بعطاء أصحابه لهؤلاء الفقراء الذين أتوا على جهد وفاقه.

نظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أكوام الطعام والثياب أمامه ولكن المنظر الذي ظل حاضراً أمام عينيه وفي قلبه هو منظر ذاك الرجل الذي أتى بالصرة في كفه ليقطع صمت الترقب والانتظار، وليستثير في النفوس توثب المسارعة إلى الخير، كان منظره هو الحاضر وكان موقفه هو المؤهل للإشادة

والثناء، فأقبل صلى الله عليه وآله وسلم على أصحابه محيياً المبادر والمبادرة قائلاً: ((من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء)).

●●● نقف أمام هذا المشهد إذ تستوقفنا معان مهمة:

● 1 - يشدنا كثيراً مشهد التفاعل العاطفي من النبي صلى الله عليه وآله وسلم لحاجات الناس، وهذا التأثر النفسي العميق لمعاناتهم، والذي طفح على وجهه الكريم بحيث رأى الصحابة تلون وجهه ألماً لما رأى بهؤلاء القادمين من الفاقة والجهد، ثم تلون وجهه كرباً لما رأى إبطاء الصحابة في الصدقة، ثم ذاك البشر الغامر الذي طفح على وجهه حتى أشرق محياه المبارك، وتلألأ وجهه سروراً وبشراً لا لشيء إلا لأن حاجة هؤلاء الفقراء قد قضيت، وخلتهم قد سدت، إن تلون وجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ألماً ثم استنارته فرحاً لحال هؤلاء يبين عمق الإحساس الوجداني لآلام الناس ومعاناتهم، وأنها من قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمكان، بحيث تضج في وجدانه، ويرى أثرها على محياه، ويقرأها أصحابه على قسمات وجهه. إن نبيك صلى الله عليه وآله وسلم يتأثر هذا التأثر لأناس قدموا عليه للتو، هذا أول لقاء له بهم، وأول تعرف منه عليهم، إنها الرحمة التي تملأ جوانحه فهو الذي وصفه ربه بأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، وأنه رحمة للعالمين. فهنيئاً لكل مؤمن رحيم رقيق القلب أن يقفو أثر نبيه ويتحلى بكريم صفاته.

● 2 - إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد تأثر هذا التأثر قد بادر من فوره بالتجاوب العملي مع مشاعره المرهفة فكان أول شيء صنعه أن بدأ بنفسه أولاً، ولذا سارع إلى بيته فدخله، ولا نحسب إلا أنه دخله يبحث فيه عما يبادر به حاجة هؤلاء الفقراء. ولكن ماذا سيجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بيته الذي تمضي فيه شهران تباعاً لم توقد فيه نار، ماذا سيجد في بيت متقارب الجدر قليل المتاع قد زويت عنه كثير من مباهج الدنيا ومتعها. ولذا خرج من بيته وليس معه شيء؛ لأنه لم يجد شيئاً، ولكن البداءة كانت بنفسه والمدخل الأول إلى بيته، وكان السابق إلى كل خير بفعاله قبل مقاله والبادئ بنفسه قبل غيره، والسابق إلى كل خير أمر به.

إن النبي الذي خطب فحث على الصدقة هو الذي كان يقسم المال حثواً في الثياب، وهو الذي أعطى رجلاً غنماً بين جبلين عطاء من لا يخشى الفقر، وهو الذي قال: «لو كان لي مثل أحد ذهباً لم تأت علي ثلاث إلا وقد قلت به هكذا وهكذا وهكذا». ثم ودع الدنيا وهو يقول: «نحن معاشر الأنبياء لا نُورَث ما تركنا صدقة». لقد كان صلى الله عليه وآله وسلم أفصح الناس وأنصعهم بياناً ولكن بيان أفعاله أبين، وبلاغة حاله أبلغ.

● 3 - ظهر من صنيع ذلك الأنصاري الذي سارع بالصرة يلقيها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أثر المبادرة الإيجابية وأهميتها، لقد تسارع الناس بعده وربما كان عطاء من بعده أكثر من عطاءه، ولكنه كان سابقاً في سن السنة الحسنة، مبادراً إلى الخير، فاتحاً لطريق المعروف، ولذا عقب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن اجتمع بين يديه كل ما اجتمع بهذه الجملة التي تنصرف له

بداية وتحيي مبادرته وتزكيها.

● 4 - لم تذكر روايات هذا الحديث اسم هذا الرجل المبادر بغير وصفه أنه من الأنصار مما يدل أنه لم يكن من ذوي الشهرة فيهم، مع أنه كان في المجلس أبو بكر وعمر والسابقون من المهاجرين رضي الله عنهم، وهذا يبين أن لا يحقر أحد نفسه عن المبادرة الإيجابية، فهذا الرجل لم يعقه عن مبادرته وجود أهل السابقة والخيرية ولكنه توثب إلى الخير وبادر إليه مسارعاً وسابقاً فكان له مثل أجر كل من جاء بعده وإن كانوا أفضل منه وأوفر عطاء.

● 5 - لم يكن إبطاء الصحابة شحّاً -وحاشاهم- فهم الذين وقاهم الله شح أنفسهم، وأخبر أنهم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ولكن لعل ذلك الإبطاء كان تراخياً في الذهاب وتردداً في المقدار، فلما بادر الرجل إلى الإنفاق بصرة من فضه كانت مبادرته حظاً للإسراع بالعطاء ورفعاً لمقدار المشاركة، ولذا كانت السنة الحسنة له السبق المحرك للبطء والسخاء المضاعف للعطاء.

● 6 - من سنَّ في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، إن هذه الجملة النبوية الكريمة في هذا المساق تبين الأثر العظيم والثمرة المباركة لمبادرات الخير، وإن المتأمل لحياة العظماء والمؤثرين والمصلحين يجدها سلسلة متابعة من المبادرات الإيجابية، ولذا أثروا تأثيرهم وأبقوا أثرهم، ولقد رأينا في حياة الإمام عبد العزيز بن باز

رحمه الله نموذجاً لروح المبادرة، فلا تلوح ثمة فرصة للخير إلا توثب إليها، إن الرسوخ العلمي لم يكن ميزة الشيخ ولكنه كان أحد مزاياه، أما مزيته فكانت المبادرة الإيجابية بحيث أبقى من بعده مشاريع قائمة وطرقاً للخير سالكه.

يقول ستيفن كوفي عن عادات النجاح (العادات السبع لذوي الفعالية العالية): المبادرة هي أم العادات. وكان حرياً أن يقول: هي أم العادات وأبوها.



9

مرحباً بابنتي

كانت أشبه الناس بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم سمتاً وهدياً ودلاً، لا تخطي بقيامها قيامه، ولا بقعودها قعوده، ولا بتكفئها إذا مشت مشيته، ولا بحديثها إذا تحدثت حديثه، وكان تعامله صلى الله عليه وآله وسلم معها على أرقى مستوى من العاطفة الأبوية والاحتفاء الكريم.

كان صلى الله عليه وآله وسلم إذا زارته البضعة النبوية قام إليها يتلقاها ورحب بها قائلاً: «مرحباً بابنتي».

ثم أخذ بيدها وقبلها، وأجلسها في مكانه الذي كان جالساً فيه مبالغة في الحفاوة والمحبة والإكرام، وإذا زارها هو قامت إليه ورحبت به وأخذت بيده وقبلته وأجلسته مكانها في صورة غاية في الأدب والاحترام المتبادل، وعلى أجمل ما تكون حفاوة الولد بالوالد.

كان هذا الحب الأبوي الدافق من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لابنته فاطمة رضي الله عنها يتلقى

بحب الابنة البارة التي تتذوق حبه وتبادله إياه محبة واحتفاء وبرّاً.

فلما مرض صلى الله عليه وآله وسلم مرضه الذي توفي فيه أرسل إليها يدعوها إليه، فأقبلت تمشي لا تخطئ مشيتها مشية أبيها صلى الله عليه وآله وسلم، فلم يقم صلى الله عليه وآله وسلم كما كان يقوم، ولم يتلقاها كما كان يتلقى، فإن العافية قد انهزمت في بدنه الشريف، وقد أمضه المرض ونهكته الحمى، وإذا بفاطمة رضي الله عنها تنكب عليه تقبله، وقد كان هو الذي يبادر لتقبيلها، فأجلسها عن يمينه فما كان يستطيع أن يقوم عن مكانه وقد كان يقوم لها عنه.

جلست فاطمة رضي الله عنها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأطاف بهما أزاوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فلا تغادر منهن امرأة، فتحدث إليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما شاء الله أن يتحدث، ثم أسر إليها وأصاخت إليه، وأزواجه يرقبن هذه النجوى وينظرن أثرها على وجه فاطمة الوضيء المنور.

وإذا بفاطمة رضي الله عنها تتلقى النجوى بتأثر بالغ عرفه أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم من بكائها الذي لم تستطع أن تغالبه، فقد بكت بكاءً شديداً، وعجب أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يخصها أبوها بالسر من بينهن ثم هي تبكي، وقالت لها عائشة رضي الله عنها: خصك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالسر من بيننا ثم أنت تبكين؟ ولو علمن ما أسر به لعذرنها ولبادرنها البكاء.

ثم إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أسر إليها أخرى وقد رأى بكائها وتأثرها، فما زال يناجيها حتى استنار وجهها وبرق محياها وضحكت بعد تأثر وبكاء.

فعجب أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم لسرعة تغير انفعال فاطمة من

بكاء إلى ضحك، ومن حزن إلى فرح، حتى قالت عائشة رضي الله عنها: ما رأيت كاليوم فرحاً أقرب من حزن، قد كنت أظن فاطمة أعقل النساء فإذا هي من النساء-يعني في سرعة تغير انفعالها- وما علمت عائشة رضي الله عنها سبب هذا التغير حينئذ ولو علمته لعذرت ولعلمت أن هذا دليل آخر على كمال عقلها وعظيم حبها لأبيها.

فلما قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سارعت عائشة إلى فاطمة تسألها عن السر الذي أضحكها وأبكاها وما قال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقالت فاطمة رضي الله عنها: إني إذاً لبذرة (أي مضيعة لا أحفظ السر) ما كنت لأفشي سر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يلبث النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد ذلك إلا يسيراً حتى توفي ولحق بالرفيق الأعلى، فقالت لها عائشة: عزمت عليك بما لي عليك من الحق لما أخبرتني. فاستجابت فاطمة رضي الله عنها حينئذ لأن السر قد صار علناً، والخبر صار عياناً، ولم يعد ثمة سر يفشى، وقالت: أما الآن فنعم، أما حين سارني في الأمر الأول فإنه أخبرني أن جبريل كان يعارضه بالقرآن في كل سنة مرة، وإنه قد عارضني به العام مرتين، ولا أرى الأجل إلا قد اقترب وأني مقبوض في وجعي هذا، فاتقي الله واصبري، فإني نعم السلف أنا لك. فبكيت بكائي الذي رأيت، ثم سارني أنني أول أهل بيته لحوقاً به وقال: ((ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة)). فضحكت لذلك، واستبان حينئذ لعائشة أن بكاء فاطمة وضحكها، وحفظها للسر يوم حفظته، وإخبارها يوم أخبرت به كل ذلك دلالات أخر على فقهها ووفور عقلها، وكمال فضلها وشرفها، فصلوات الله وسلامه وبركاته على سيدة نساء العالمين، البضعة النبوية والجهة المصطفوية.

❁❁❁ وها هنا وقفات منيرة:

● 1 - نرى هذا التدفق العاطفي، والإعلان بالحب الأبوي، وجمال التعبير عنه بالزيارات المتبادلة، والقبلة الحانية، والكلمة الجميلة المعبرة، والترحيب الحفي، والتلذذ بذكر الأبوة «مرحباً بابنتي»، إن التعبير عن عاطفة الأبوة بهذه الكثافة والوضوح والتنوع يجعل علاقة الأبوة والبنوة في غاية القوة والعافية والجمال، ويدل على صحة نفسية عالية واستواء في المشاعر وارتواء للعواطف.

إن في نفوس الآباء عاطفة أبوة فطرية ولكن يقع التقصير أو الفشل في التعبير عنها، وجعل الأبناء يتذوقون نشوتها ويعيشون دفئها.

وقد يعتمد بعض الآباء على دلالة الحال وربما أعلن ذلك قائلاً: أولا يرون عملي وكدحي، أليس كل ذلك من أجلهم ولهم! ولكن الدرس النبوي الأبوي يدلنا على أن التعبير عن الحب وتلبية الحاجات النفسية ليس أدنى من أداء واجبات الأبوة الأخرى ومسئولياتها، وحين يتم ذلك فإنه أكبر عون للأبناء على بر الآباء والإحساس بعظيم حقهم.

● 2 - هناك معنى آخر يصاحب الحب وقوة العاطفة في أبوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهو الاحترام والاحتفاء بابنته فاطمة رضي الله عنها، يظهر ذلك في قيامه لها وتلقيها وأخذه بيدها وإجلاسها مكانه، وإظهار هذا كله أمام أزواجه كلهن.

إن الذي يحترم ابنته هذا الاحترام هو الذي عاش في بيئة تزدري المرأة بحيث يراوح مصيرها بين الوأد الحسي أو المعنوي ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي

التُّرَابِ﴾، ولكن هذا النبي العظيم صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يستمد رؤيته من منظور اجتماعي ولكنه يتلقى الوحي من الله لإقامة البشرية على الطريقة السوية والصراط المستقيم، فإذا أبوته درس للبشرية يعلمها أن الأولاد بحاجة إلى الاحترام لبناء شخصياتهم كما هم بحاجة إلى العاطفة لإشباع مشاعرهم وبناء نفسياتهم لتصنع ثم شخصية سوية متكاملة.

● 3 - نلاحظ أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أفضى إلى فاطمة رضي الله عنها بسر خاص لم يفض به إلى أبي بكر ولا عمر ولا ابن عمه علي ولا زوجاته أمهات المؤمنين، وهو سر يعنيه ويعنيها بالدرجة الأولى.

إن من معاني الأبوة الحقيقية إشعار الأبناء بالأهمية باطلاعهم على هموم الآباء وقضاياهم مما يشعرهم بالقرب والمسئولية ويبني في نفوسهم الثقة والمشاركة، كما أن كتمان الأب لقضاياه وهمومه عن أبناءه يشعرهم بالإقصاء والتهميش.

إن هذا الإفضاء إلى فاطمة بهذا السر هو أحد صور العلاقة الوثيقة الجميلة والرائعة بين الأب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وابنته فاطمة كرم الله وجهها.

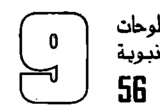
● 4 - الأبناء يكبرون ويكبر حبهم معهم وليسوا لعبًا يلهى بهم صغارًا ويهملون كبارًا. فهذا التعامل من النبي صلى الله عليه وآله وسلم بما فيه من رقة وعاطفة وحنان وحب أبوي غامر كان لفاطمة وهي في الخامسة والعشرين من عمرها زوجة وأم لخمسة أولاد. إننا نغفل أحيانًا عن التعبير الواضح بمشاعر الحب الأبوي لأبنائنا وبناتنا الكبار ويشغلنا عن ذلك ترقب مراسم التوقير

والاحترام منهم فهل يذكرنا ذلك هذا الدرس النبوي الأبوي؟

● 5 - ظهر أثر اختصاص فاطمة رضي الله عنها بهذا الخبر بتهيئتها للمصاب العظيم الذي ستكون أشد الناس فاجعة به، فالمصاب هو في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفي الأب العظيم الكريم الحفي المحب، ويا لله لفاطمة وهي تنظر بعينيها إلى محيا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو ينعي إليها نفسه، ويُخبرها أنه ميت في مرضه ذلك، وتعلم وهي تنظر إلى صفحة وجهه المبارك أن هذا آخر العهد به في الدنيا.

لقد اختار النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يكون هو الذي يخبرها بذلك في حياته ويهيئها لاحتمال المصاب ومواجهة الحدث، فلما توفي صلى الله عليه وآله وسلم كانت فاطمة على الحال الحسنة من الثبات والصبر والاحتساب، فقد كانت عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والموت يتغشاه وهي تقول: واكرب أبتاه. فيغالب النبي سكراته وكربه ليقول لها: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم». فلما مات قالت: يا أبتاه، أجاب رباً دعاه، يا أبتاه، جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه. ولما دفن ما زادت على أن قالت: أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله التراب. ولقد علمت رضي الله عنها أنها ما طابت ولن تطيب، لولا أن هذه سنته التي دل عليها أمته، فصلوات الله وسلامه وبركاته على أهل ذلك البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.





10

راية

المشرف على أودية خيبر يرى سهولها تحضن غابات شاسعة من النخيل بينما تعصم هامات جبالها حصون يهود المشيدة التي لا يقاتلون إلا من ورائها، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحاصر أعظم هذه الحصون وأمنعها، ويُسمّى حصن القموص، وقد تطاول الحصار فجاوز بضعة عشر يوماً، وتوالت المحاولات لافتتاحه؛ إذ دفع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الراية لأبي بكر رضي الله عنه، فقاتل فرجع ولم يك فتح وقد جهد، ثم أعطى الراية عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقاتل ثم رجع ولم يك فتح وقد جهد، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عشية يوم: «لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله ليس بفرَّار، لا يرجع حتى يفتح الله له».

فبات الناس ليلتهم تلك يخوضون في هذا الذي سيُعطى الراية، وقد حاز هذه الصفات وسيكون الفتح على <



يديه. أيهم هو؟ وتشوّفت النفوس إلى هذا الشرف، فما رجل له منـزلة عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا وهو يرجو أن يكون ذلك الرجل، حتى قال عمر رضي الله عنه: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ. غير أن رجلاً لم يستشرف لما استشرفوا له، ولم يؤمل ما أملوه، وما كان ذاك لقصور في فضائله؛ فهو الذي قد جمع الفضائل من أطرافها. ولا لقعود في همته؛ فهو المسارع في الخيرات السابق لها، ولكن لأن لياقته البدنية لم تكن تؤهله أن يحمل راية أو ينفذ لقتال. فقد كان أيامه تلك أرمد شديد الرمد قد أظلمت عيناه؛ فلا يبصر شيئاً. فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكلهم يتطاول لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يرجو أن يكون هو الذي يُعطى الراية ويحظى بالشرف، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((أين علي بن أبي طالب؟)). قالوا: يا رسول الله هو يشتكي عينيه. وكأنما ذهبت الظنون إلى أنه سيختار غيره ممن لا يشكون شكايته، وإذا النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: ((أرسلوا إليه)). فجيء به إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يُقاد لا يُبصر شيئاً. فوضع النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأسه في حجره المبارك، ثم تفل من ريقه الطيّب في يديه ثم مسح بهما عيني عليّ. فقام عليّ بارئاً كأن لم يكن به وجع، فدفع إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم الراية وقال: ((امشِ ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك)).

فخرج عليّ رضي الله عنه بالراية مسرعاً يهرول هرولة والناس يتبعون أثره، فلما سار غير بعيد وقف مكانه، ولم يلتفت وإنما صرخ بأعلى صوته لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قائلاً: يا رسول الله، على ماذا أقاتل الناس؟ أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم بنداء سمعه عليّ

وكل من معه: ((انفذ على رسلك حتى تنـزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم)).

فانطلق حبيب الله ورسوله بالراية حتى ركزها تحت الحصن، ثم دعاهم بدعاية الإسلام وحق الله عليهم فلم يكن منهم إلا القتال، فقاتلهم وهو الأيّد القوي الشديد الذي لا يفرّ إذا لاقى، ففتح الله عليه في يومه ذلك، وكان الفتح وانكشف الغطاء.

● ثم ألا يستوقفك مع هذا الخبر:

●1 - وضوح الهدف وجلاؤه إلى درجة التألق، وليتضح ذلك في ذهنك تصوّر جموع المسلمين وهم يواجهون يهود ويتهيؤون لقتالهم وتسترجع ذكرياتهم مرارات الغدر والخيانة وشدة العداوة خلال سبع سنين قضاها المسلمون معهم. من تحرش بني قينقاع، إلى مكائد بني النضير، إلى غدر بني قريظة، في سلسلة مريرة من عداء يهود وتأليبهم، ومع ذلك فلم يكن التشفي والانتقام هو الهدف الحاضر حين المواجهة والاقتتال.

وكان المسلمون يشرفون على خيبر فتنفسح أمامهم أوديتها عن أكبر مخزن غذائي تحضنه غابات نخيلها التي ينتهي دون مداها مدى البصر، وتشرف عليهم حصونها التي تخزن خزائنها القناطير المقنطرة من الذهب والفضة التي يبرع يهود في جمعها واكتنازها، ولم تكن هذه الثروات حاضرة في هدف القتال لدى الصحابة؛ مع ما كانوا يعانون من جهد الفاقة وعوز الفقر وشدة الحاجة.



كان الهدف أسمى من شهوات الانتقام ومطامع المال، فقد كان هداية الناس وتعبيدهم للرب الذي خلقهم، وأداؤهم لحقه عليهم، وكان من صنع الله في ذلك المشهد أن يتذاكر عليٌّ رضي الله عنه مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن سار قليلاً فيصرخ عليٌّ بالسؤال ويستعلن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالجواب لتسمع كل أذن ويعي كل قلب: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»، ولم يكن عند العرب مال أكرم ولا أنفس ولا أعجب من الإبل الحمر يقتنونها ويتكاثرون بها، وخير منها هداية رجل يقبل بقلبه على الله تعالى..

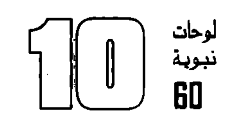
● 2 - ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم صاحب الراية الذي يفتح الله علي يديه، فلم يذكر قرابته القريبة، وقد كان ابن عمه وذا قرباه، ولم يذكر منزلته منه، وكان صهره زوج ابنته، وإنما ذكر مؤهلاته النفسية والقيادية:

أ- إنه يحب الله ورسوله -الحب الحقيقي الكامل- وإلا فكل مسلم يشترك معه في مطلق المحبة.

ب - ويحقق المتابعة التامة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولذا أحبه الله ورسوله ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ...﴾.

ج- وهو الشجاع الذي لا يفرّ إذا لاقى، وهل كانت الشجاعة تجد بيتها إلا في قلب عليّ رضي الله عنه.

إن هذه المؤهلات العظيمة والصفات الكريمة هي التي استدعت عليّاً وكان غائباً، وقدّمته ولم يكن متشوّفاً، وحققت له وسام الفتح وما كان يظن هو ولا غيره أنه صاحبه ذلك اليوم.



وبعرض النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهذا الإنجاز «يفتح الله على يديه» مقروناً بتلك المؤهلات يعلن أن نجاح الأمم والمجتمعات مرتبط بتولية المسؤوليات لذوي الكفاءة والاقتدار والمؤهلات الحقيقية كما أن الفشل يلازم إناطة المسؤولية لغير المؤهلين إيثاراً ومحاباة.. «فإذا وُسّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة».

● 3 - روح التنافس على الخير بين أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلم تكن الإمارة والقيادة مطمعاً لهم، فلما ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذه الصفات استشرفوا لها، وباتوا ليلتهم يدوكون فيها، وغدوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكلهم يتمنى أن يُعطاها، ولسان حالهم جميعاً لسان عمر: «ما تمنيت الإمارة إلا يومئذ» طمعاً في حب الله وحب رسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾.

● 4 - وهنيئاً لسيدنا أمير المؤمنين أبي الحسن -رضي الله عنه وأرضاه- الذي كانت قدماه تدفان على الأرض، وحبّه في الملأ الأعلى «يحبه الله ورسوله».



11

يوم الوشاح

كان الداخل إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يرى في ناحيته حجرة صغيرة، متقاربة الجدر، متطامنة السقف، بُنيت لتسع شخصاً واحداً، ولا تتسع معه لأحد. وكان هذا الحفش سكناً لامرأة سوداء ليس لها مأوى غيره، وكانت هذه المرأة تكثر الذهاب إلى بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم لتستأنس بالحديث مع عائشة رضي الله عنها، فإذا فرغت من حديثها أنشدت بيتاً من الشعر تشدو به في كل مجلس من مجالسها:

ويوم الوشاح من تعاجيب ربنا
ألا إنه من بلدة الكفر أنجاني

فعجبت عائشة رضي الله عنها من كثرة إنشاد هذا البيت، فما يوم الوشاح؟ وما تلك الأعجوبة الربانية التي أثرت في نفس السوداء حتى لا تنفك من تَذكُّرها في كل مجلس تجلسه؟! فقالت لها: ما شأنك؟ لا تقعدين معي مقعداً إلا قلتِ هذا؟ <



فقصت المرأة قصتها وحكت خبر يومها، فإذا عجب عاجب!

فقد كانت المرأة أَمَة لحي من أحياء العرب في مكة، فأعتقوها فبقيت معهم بعد عتقها، شأن كثير من المماليك الذين لا يستطيعون بعدِ العتق حيلة ولا يهتدون سبيلاً، وفي يوم من أيامها عندهم خرجت صبية لهم كانت عروساً تجلى قد اتشحت بوشاح أحمر من جلد، فدخلت إلى مغتسلها لتغتسل ووضعت وشاحها عند المغتسل، فمرت به حدياة، وهو ملقى فحسبته لحماً، فانحطت عليه فخطفته، فلما خرجت الصبية لم تجد وشاحها فصاحت بأهلها، فبحثوا عنه فلم يجدوه، فاتهموا به أمتهم السوداء هذه فعذبوها وطفقوا يفتشونها حتى بلغ من أمرهم أن فتشوا قُبُلها! وكانت ساعة كرب وشدة أحست فيها بالمهانة والظلم، وضاقت بها الحيل، فليست ذات نسب تعتزي بنسبها، ولا ذات قرابة تستنصر قرابتها، وليس بها قوة فتدفع عن نفسها.

فلم تجد نصيراً تستنصره، ومغيثاً تستغيث به إلا ربها الذي خلقها، ونسيت آلهة قومها وأصنامهم، وتوجهت إلى الله تعالى بأشد ما يكون الاضطرار تدعوه أن يظهر براءتها ويخلصها من كربها. فأجابها الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، جاء الفرج أسرع مما أملت وألطف مما قدرت.

فإذا الحدياة التي خطفت الوشاح قد أقبلت به وهم لا يزالون قيامًا حولها، وهي في كربها معهم حتى وازت برؤوسهم وهم ينظرون إليها ثم ألقت به بينهم، فأخذوه فإذا هو وشاح ابنتهم، فنُفس الكرب وظهرت البراءة، وقالت لهم بمقال صاحب الحق -وإن لصاحب الحق مقالاً-: هذا الذي اتهمتموني به زعمتم وأنا منه بريئة وهو ذا هو، ثم هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأسلمت، وكانت عنده، سكنها في مسجده، وحديثها وأنسها في بيته، وهناك وجدت نفسها سكينتها بالهداية، وكرامتها في أخوة المؤمنين والمؤمنات لها، حتى

إن بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان مأواها ومستراح نفسها.

وأحسبُ أنها هي التي نذرت نفسها لخدمة المسجد النبوي فكانت تقمّ المسجد وتلتقط منه الخرق والعيدان والقذى، ثم فقدها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسأل عنها، قالوا: ((ماتت يا رسول الله، فقال: ((أفلا كنتم آذنتموني؟)). قالوا: يا رسول الله، ماتت من الليل فكرهنا أن نوقظك! فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ((دلوني على قبرها)). فأتى قبرها، فصلى عليها، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها، وإن الله ينورها لهم بصلاتي عليهم)).

● ولنقف مع هذا الخبر وقفات:

● 1 - إن هذه المحنة كانت سبباً لتعود هذه المرأة إلى صفاء الفطرة التي فطر الله الناس عليها، لقد عاشت ألم الكرب وذاقت مرارة الظلم، وبُهتت وبُغي عليها، ولم تجد من يبرئها، أو يدفع عنها، فليس لها قويٌّ تتقوّى به أو قريب تتقرب إليه، وعرفت أن آلهة قومها وأصنامهم التي يدعون لن تُغني عنها من دون الله شيئاً، فتوجهت إلى الله تعالى تشكو إليه ضرها، وتنزل به حاجتها، فأجابها الذي يجيب المضطر، ويرفع دعوة المظلوم، ورأت كيف كان الفرج ببراءة ظاهرة قامت على رؤوس قومها وهم ينظرون، ولذا هاجرت إلى حيث لا يُعبد إلا الله وحده بعدما علمت أنه لا يكشف الضر إلا الله وحده.

● 2 - كانت هذه المرأة تعيش نشوة الإحساس بفضل الله عز وجل عليها بطيب المنقلب، فإنها لما هاجرت إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم تذوقت نعيم الهداية



بعد الضلال، وعز الكرامة بعد الإذلال، ووجدت نفسها بعد أن كانت عرضة للتُّهم والبغي والاستضعاف تعيش بين المسلمين موفورة الكرامة، مصونة الحقوق، تُحس بأخوة الإيمان بين المؤمنين وولاية بعضهم بعضاً، ولعل ذروة هذا الإحساس تتجلى حين تجد نفسها في أشرف البيوت وأكرمها، في البيت الذي أذهب الله عنه الرجس وطهره تطهيراً، في بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تتحدث فيه وتُحدَّث، وتستأنس فيه وتؤانس، فلا عجب أن تستثير المقارنة بين الحالين وشجونها فتنشد معترفة لله بعظيم فضله عليها:

ويوم الوشاح من تعاجيب ربنا

ألا إنه من بلدة الكفر أنجاني

لقد أنجاها الله من حالة الازدراء بها والاجتراء عليها إلى شرف صحبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسكنى مسجده، وجوار بيته، وخلطة أهله.

● 3 - نرى كيف كان بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مأوى للمسلمين وبخاصة فقراؤهم وضعفاؤهم وذوي العيلة منهم، وكانت حجرته الصغيرة تنفسح للضعفاء بحيث كانت هذه السوداء تأوي إلى عائشة رضي الله عنها في حجرتها لا لتُصيب الرفد والإطعام، ولكن لتُصيب نفسها حاجتها من الإيناس والمحادثة، ولتجد في بيت النبوة ما يزيل عنها وحشة الغربة ويمسح عن نفسها ما أمضّها من ألم، إن عائشة -رضي الله عنها- كانت تتعامل مع هذه المرأة بالخلق النبوي الكريم الذي يسع الناس كلهم، حتى إن هذه المرأة السوداء الغريبة تجد في هذا البيت المبارك مكانها، وتستوفي من خلق النبي صلى الله عليه وآله وسلم نصيبها.

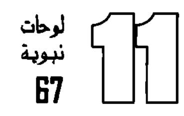
● 4 - إن هذه المرأة لمّا هاجرت إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسكنت مسجده لم تجعل نفسها عبئًا على المسلمين، وإنما بحثت عن دورٍ تقوم به وعملٍ تشارك فيه، وقد كانت خلفيتها المهنية تؤهلها للدور الذي اختارته وهو خدمة المسجد النبوي وتعاهد نظافته، وبذلك صار لها دور إيجابي في حياة المسلمين يحسُّه كلُّ الذين يغشون مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليدخلوه كما يليق بمكانته وشرفه نظافةً وطهارةً وحسن رعاية واعتناء.

● 5 - كانت مساحة اهتمام النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالناس واسعة تسعهم كلهم.. بحيث إن أغمارهم ومن لا يُؤبه به منهم يجد مكانه ومكانته في نفس النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم اهتمامًا ورعاية تعاهدًا.. فها هو صلى الله عليه وآله وسلم يتفقد تلك المرأة السوداء حين فقدها، ويسأل عنها في غيبتها، ويعتب على أصحابه أنهم لم يؤذنوه بموتها، ثم يذهب إلى قبرها فيُصلي عليها ويدعو الله أن ينوِّر ظلمة هذه القبور على أهلها.

لقد تعاهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم امرأة ماتت فلا يُرجى منها شيء، وكانت غريبة فلا أقارب لها يتقرب إليهم بذكرها، ولكنه خلق النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي وسعها في حياتها، ثم تبعها بعد مماتها، وأوقفه على قبرها مصليًا وداعيًا.

فرضي الله عن خادمة مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأرضاها وصلوات الله وسلامه وبركاته على من بُعث متممًا لمكارم الأخلاق فأتمّها.





12

المشركُ النبيل

•بُدئت معركة بدر بدرسٍ أخلاقي وخُتمت بدرس أخلاقي، وكان النبي الذي بُعث متمماً لمكارم الأخلاق يتعاهد تتميمها في ظرف المعركة الاستثنائي.

أمّا أول هذه الدروس فكان قبل بداية المعركة، ونفوس المسلمين مشحونة بمرارة الظلم الذي لقوه من قريش في مكة، وبالتحفّز للمواجهة التي أجلبت لها قريش بخيلها وخيلائها، وإذا النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعلن الحماية والخفارة لرجل، هو مشرك من المشركين، ومحارب مع جيشهم، وجاء بسلاحه من مكة إلى بدر لقتال المسلمين، ومع ذلك يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

«من لقي أبا البختري بن هشام فلا يقتله».

إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يلفت إلى أن هذا الرجل له سابقةٌ أخلاقية وتميّزٌ عن غيره من المشركين في المروءة والنبل، فقد كان في مكة من أكفّ المشركين للأذى عن رسول الله ‹



صلى الله عليه وآله وسلم، وكان له موقفٌ مشهودٌ مشكور في القيام بنقْض الصحيفة الظالمة التي كُتبت لمقاطعة بني هاشم وحصارهم في الشِّعب. فذكر له النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذه السابقة، وأعلن له الحماية، فلا يُقتل وإن كان مشركًا وجاء مقاتلاً.

وثاني الدروس الأخلاقية في مدرسة بدر، كان بعد نهاية المعركة، عندما قطف المسلمون من ثمار النصر سبعين أسيرًا، فيهم أشدُّ أعداء النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأكثرهم ضراوة في أذيّته: النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط.

وكانت نفوس المسلمين لا تزال تستذكر الألم الممضّ لظلم هؤلاء وأذيّتهم في مكة، واستضعافهم لضعفاء المسلمين، وجراءتهم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ففي القلوب غيظ، وفي النفوس كمد، وكانت صدور المؤمنين أحوج ما تكون إلى التشفي بانتقام يُذهب غيظ قلوبهم، وإذا النبي صلى الله عليه وآله وسلم ينظر إلى هؤلاء الأسرى بين يديه ثم يقول: «لو كان المطعم بن عدي حيًّا ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له». لقد أعلن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن هؤلاء جميعًا كانوا سينالون حريتهم لو أن المطعم بن عدي قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا محمد دعهم لي!، إذاً لتركهم له النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالرغم من كل سوابقهم الإجرامية، ولكظم كل نوازع التشفي والانتقام منهم، كلُّ ذلك تقديرًا لكلمةٍ يقولها المطعم فيهم، أو شفاعة يشفعها لهم.

بقي أن نتذكر أن المطعم بن عدي عاش ومات مشركًا، لم يقل يومًا من الدهر: «ربِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين»، ولكنه كان صاحب نجدةٍ ومروءة، ومن

مروءته جواره للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لما عاد من الطائف، فرضخت قريش لذلك، وقالت للمطعم: ((أنت الرجل الذي لا تُخْفَر ذمّتك)).

وكان يجمع إلى نبله ذلك حكمة وسداد رأي، فقد جمع قريشاً بعد هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال لهم: ((إنكم قد فعلتم بمحمد ما فعلتم فكونوا أكفّ الناس عنه)).

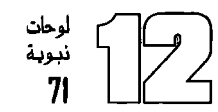
لقد كان المطعم مشركًا ولكنه مشرك نبيل، فقلده النبي صلى الله عليه وآله وسلم بكلمته تلك وسامًا عظيماً في يوم عظيم.

●● ❀ إن مدرسة بدرٍ الأخلاقية تُفيض علينا دروسًا منها:

● 1 - ذكر مكارم ذوي المكرمات، ومعرفة أقدار أهل المروءات، وإن كانوا كفارًا محاربين، ولم يمنع ارتكابهم لأعظم الخطايا الدينية وهو: الشرك، من ذكر مناقبهم الدنيوية، من المروءة ومكارم الأخلاق.

● 2 - الوفاء وحسن العهد من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأصحاب السوابق الأخلاقية الكريمة، وذكرها والوفاء لها في أحرج المواقف، وهو موقف المواجهة العسكرية، ولحظات التوتر والانفعال، واستشاطة الغيظ.

لقد كان هؤلاء الأخلاقيون يتعاملون بالأخلاق مع من بُعث متمماً لمكارم الأخلاق، ومن كان يقول بحاله ومقاله: ((حسن العهدَ من الإيمان))، ولذا عرف الكريم صلى الله عليه وآله وسلم لهؤلاء الكرام مواقفهم، وذكرها لهم، وكافأهم عليها بالتي هي أحسن.

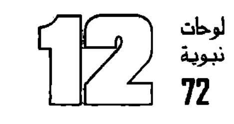


● 3 - ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذا الكلام في موقفٍ لا يُظن أن يُذكر فيه؛ لأنه موقف المواجهة العسكرية وفرصة التشفي والانتقام وشفاء الغيظ، ولكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم استعلى على ذلك كله ليُبيّن أن موقفه ذلك مبدأ أخلاقي وليس تكتيكًا سياسيّاً، إنها القيادة المرتكزة على المبادئ.

● 4 - لم يكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يتحدث عن هؤلاء المشركين النبلاء، يُسمِعُ أهلهم أو قرابتهم، ولكنه كان يخاطب أصحابه المؤمنين به، ليُربّي في نفوسهم -وبأسلوب تربوي فريد- شرف هذه الخصال الأخلاقية، ومكانة من صدرت منه، وإن كان مشركًا ليكونوا هم أحقّ بها وأهلها، ويكافِئوا عليها بأحسن منها، كما أنه توجيه نبويّ لهم بالتـزام معايير الإنصاف وإنـزال الناس منازلهم.

5 - فَقِهَ الصحابة رضوان الله عليهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذا المعنى فالتـزموا الإنصاف وإحقاق الحق، وذكر المناقب حتى مع من يخالفهم في الدين والوطن والجنس، فهذا حسان بن ثابت رضي الله عنه يرثي المطعم بن عدي لمّا مات بقصيدة يذكر فيها مآثره ويُثني فيها على أخلاقه، وهذا عمرو بن العاص رضي الله عنه يذكر الروم فيقول: أما إنّ فيهم لخصالاً خمسًا. ثم يذكر خمس خصالٍ هي معاقد الأخلاق ومقومات السيادة.

● 6 - بالرغم من وضوح هذا المعنى ونصاعته في التربية النبوية إلا أننا نُخفق



في التـزامه في أحايين كثيرة؛ فعلى كثرة من يتحدث عن الغرب بمبالغة انبهاريّة نجد من يتحاشى ذكر شيء من فضائلهم الأخلاقية أو مزاياهم السلوكية، والتي هي عناصر القوة الحقيقية في حضارتهم، بل إننا قد نختصر تقييمنا للناس في خطيئةٍ قارفوها، أو خطأ وقعوا فيه، بل ربما وجدنا من العسر النفسي علينا أن نذكر محاسن شخصٍ نحن معه في اختلافٍ اجتهادي أو خلافٍ في وجهة نظر، وإذا كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد استعمل أعلى معايير الإنصاف مع من يفصل بينه وبينهم الشرك الأكبر، فنحن أحوج إلى استعمالها مع إخواننا الذين يجمعنا معهم أكثر مما يفرّقنا، ويدنينا إليهم أكثر مما يبعدنا، وألاّ نجعل من أخطاء إخواننا زنازين نسجنهم فيها، ثم لا ننظر بعدُ إلى ما يكون فيهم من مزايا وفضل.

●●●●●

13

إنّي أُحِبّه

لم تكن ساعة يخرج فيها أحد، ولكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خرج في هذه الساعة في نحر الظهيرة، وصائفة النهار، واستعار حرارة الشمس، سار النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسار معه أبو هريرة رضي الله عنه لا يدري إلى أين سيذهب في هذه الساعة، وهابه أن يسأله، فمر بسوق بني قينقاع، ثم جاوزه حتى وصل إلى بيت ابنته فاطمة عليها رضوان الله وسلامه- . توقف بفناء البيت ولم يدخله، وإنما نادى: «أين لكع أين لكع أين لكع» وهو نداء تصغير وتمليح أين الصغير أين الصغير- يريد حفيده الحسن رضي الله عنه، وسمعت فاطمة رضي الله عنها أباها، وسمع الحسن جده فبادر إليه، ولكن أمه فاطمة أمسكت به، واحتبسته حتى تهيّئه لمقابلة أبيها الذي جاء في هذه الساعة لزيارته، فغسّلته وألبسته قلادة من القرنفل يلبسها الصبيان، ثم أطلقته، فجاء الصبي يشتد مسرعًا 〈

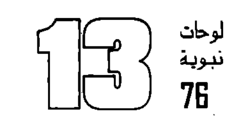


إلى جده، فلما بصر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم برك له في الأرض، ومد يديه، فتجاوب معه الحسن، وهو يعدو، ومد يديه، وألقى بنفسه على الصدر الرؤوف الرحيم حتى التـزما عناقاً، وجعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم يشم بُنَيَّه ويقبله، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم إني أحبّه فأحبّه وأحبَّ من يحبّه». ورأى أبو هريرة رضي الله عنه ما رأى، وسمع ما سمع، وتجاوبت عاطفته مع عاطفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: فما كان أحد أحبّ إليّ من الحسن بن علي بعدما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما قال.

وثمة نسمات من عبير هذا الموقف:

● 1 - إن خروج النبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الوقت، وهو وقت ما كان يخرج فيه أحد؛ لأن نحر الظهيرة يُكِنُّ الناس في بيوتهم في بلدة حارّة كالمدينة النبوية، يبين أنه خرج لأمر هام، وقد كان هذا الأمر زيارة حفيده الحسن ومعانقته وتقبيله والدعاء له.

إن حقوق الأسرة كانت تأخذ حيّزها الكامل في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكان الأسوةُ الحسنة صلى الله عليه وآله وسلم يوفي كل ذي حق حقه، وكان أولى الحقوق بالوفاء حق بنيه وحفَدَته. ولذا لم تكن زيارته لبنيه وتعاهده لهم مقصاة في فضول الأوقات وبقايا الفراغ، ولكنه يوفيها، ولو أدّى ذلك إلى أن يخرج في مثل هذه الساعة، ويتعرّض للفح الهجير وحرارة صائفة النهار.



● 2 - الإعلان بالحب من خلال الدفق العاطفي الغامر الذي أغدقه النبي صلى الله عليه وآله وسلم على ابنه الحسن في مشهد رائع من مشاهد عظمة المشاعر المحمدية؛ فكان الترحيب ببسط اليدين، ثم العناق، ثم التقبيل والشمّ، ثم سكب هذا الحب معلنًا في مسامعه: ((اللهم إني أحبّه))، ثم الدعاء أن يرفع له الحب في الملأ الأعلى، ويوضع له بين الخلق ((فأحبّه وأحبّ من يحبّه)).

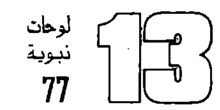
إن تحقيق الإرواء العاطفي للأبناء تلبيةٌ لمطلب نفسي ملح، وعندما يتحقق هذا الإشباع للعواطف يخرج الأبناء إلى الحياة بنفوس سوية تعيش الحب وتتعاطاه، وتتعامل مع المجتمع بلياقة نفسية عالية.

كما أن جمود الآباء في التعبير عن هذه المشاعر، وتقصيرهم في إشباع هذه العواطف يبقي مساحة مجدبة في نفوس الأبناء هي عُرضة لنمو الأوبئة النفسية.

● 3 - وقف النبي صلى الله عليه وآله وسلم على باب فاطمة رضي الله عنها ولم يدخل، وإنما دعا بحاجته، وهو ابنه الحسن، ولذلك وقعه الجميل في نفس فاطمة التي ترى من خلال هذا المشهد مكانة ابنها عند أبيها.

إن الحفاوة بالأبناء حفاوة بآبائهم وأمهاتهم، وطريق مختصرة في إدخال السرور إلى قلوبهم، ولذهنك أن يذهب كل مذهب بتصور ابتهاج الزهراء بروعة ذاك اللقاء بين ابنها وأبيها، ونشوة الفرح بهذا اللطف النبوي يغمر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم ابنها الحسن بمسمع منها.

لقد كان حب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحفاوته بأحفاده فرعًا من حبه وحفاوته بأولاده.



● 4 - إن مجيء الصبي مسرعًا يشتد مادًا ذراعيه إلى جده صلى الله عليه وآله وسلم يدل على خلفية طويلة في بناء العلاقة العاطفية، فقد عهد الحسن أنواعًا من العطف والملاطفة والحنان، فكان صلى الله عليه وآله وسلم كثيرًا ما يشمّه ويقبّله ويقول: ((إني أحبّه))، وقطع خطبته لما رآه مع أخيه الحسين، ثم أقبل عليهما وحملهما بين يديه، وهو يقول: ((﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ رأيتهما فلم أصبر)). ثم أتم خطبته، وهو صلى الله عليه وآله وسلم الذي صلى بالناس فسجد سجودًا طويلاً، فلما قضى صلاته سألوه فقال: ((إن ابني ارتحلني -أي أن الحسن ركب ظهره وهو ساجد- فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته))، إن هذا العطاء العاطفي كان زخمًا متواصلاً، ولم يكن لفتات عابرة، ولذا أنتج هذا التعلق والشوق المتبادل بين الحسن وجده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

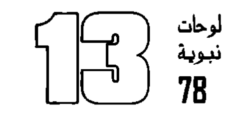
● 5 - إن النبي الذي كان يعامل أبناء بنته بهذا الحنان الغامر والحب المستعلن، وينادى أسباطه بالأبوة، و يستعلي بها، فيقول عن الحسن والحسين: ((هذان ابناي وابنا بنتي)). ويقول عن الحسن: ((إن ابني هذا سيد))، في حين كانت أحياء من العرب تزدري البنت، وتجفو بنيها، ويقولون:

بنونا بنو أبنائِنا وبناتُنا

بنوهن أبناءُ الرجالِ الأباعدِ

فكان صلى الله عليه وآله وسلم بهديه ذلك يرد الناس إلى الفطرة السوية في التعامل، وإلى العدل في العواطف والمشاعر.

● 6 - كان حب النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأحفاده ودعاؤه لمن أحبهم



أثره في حياة الصحابة الذين تجاوبت مشاعرهم مع هذا الحب النبوي؛ فأحبوا ما أحب صلى الله عليه وآله وسلم، فهذا أبو هريرة رضي الله عنه يقول: بعدما سمع مقالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم تلك: فما كان أحد أحب إليّ من الحسن بن علي بعدما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما رأى أبو هريرة الحسن إلا دمعت عينه.

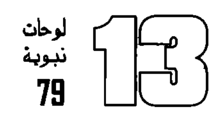
وهذا أبو بكر رضي الله عنه يخرج من المسجد بعد أن ولي الخلافة، فيرى الحسن يلعب مع الصبيان، فيقبل إليه، ويحتمله على عاتقه وهو ينشد:

وابأبي، شبه النبي، ليس شبيهًا بعلي

وعلي يمشي إلى جانبه، ويضحك سرورًا بصنيع أبي بكر رضي الله عنه.

اللهم إنا نحبّ ابني نبيك محمد صلى الله عليه وآله وسلم حسنًا وحسينًا، ونسألك أن ترزقنا بحبّهما حبّك وحبّ نبيك، وأن تسلك بنا طريقهما وتحشرنا في زمرتهما.





14

ثمامة

أرسل النبي صلى الله عليه وآله وسلم سرية من سراياه العسكرية التي تحمي الجبهة الشرقية للمدينة النبوية، فظفرت برجل من سادات بني حنيفة يقال له: ثمامة بن أثال.

فلما جيء به إلى المدينة لم يحبس في زنزانة مغلقة أو ثكنة عسكرية، وإنما رُبط إلى سارية من سواري المسجد، لتكون أمام عينيه الواجهة الحياتية والعبادية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين.

فخرج إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال: «ما عندك يا ثمامة؟».

إن هذه الكلمة النبوية أبعد ما تكون عن التبكيت أو الإهانة، أو التهديد.. لقد كان متوقعاً أن يسمع ثمامة مباشرة ما عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإذا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسأله عما عنده؟

فأجاب ثمامة بمنطق السادة ووثوق الأشراف قائلاً: عندي خير يا محمد.

ثم طرح الاحتمالات المتوقعة فقال:

إن تقتلني تقتل ذا دم -أي: ذو دم خطير- وإن تُنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت. فتركه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولم يحدد له أيّاً من هذه الخيارات، لتشتغل حواسه ومداركه في مراقبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن حوله، لعله يستشف مصيره الذي سينتهي إليه.

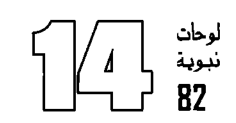
وكان ثمامة وهو مربوط إلى ساريته لا يُعامل بما يخدش كرامته، بل كان طعامه يُحمل إليه من أبيات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكأنما كان يواسيه في طعامه وشرابه.

ومضى يوم وثمامة مربوط إلى ساريته، يرى تعامل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعظمته الأخلاقية، وكيف يعيش مع المسلمين وهو إمامهم كأحدهم يسعهم جميعاً بخلقه وإقبال نفسه.

ويرى صفوف المسلمين وهم يصلون خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في منظر تعبدي عظيم ما رأت عيناه مثله. وسمع ثمامة آيات القرآن يرتلها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في صلواته.. فكانت كل المشاهد أمام عينيه رسائل نافذة إلى قلبه فلما كان من الغد، أتاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: «ما عندك يا ثمامة؟». قال ثمامة: ما قلت لك! إن تنعم تُنعم على شاكر. ولم يزد ثمامة على ذلك.

فقد أنست نفسه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عدم التشفي بالانتقام وعدم الطمع في المال ولذلك اختصر جوابه بما يظنه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فتركه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليعيش يوماً آخر في مدرسة النبوة ليرى أكثر مما رأى ويسمع أكثر مما سمع..

فلما كان اليوم الثالث: أتاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «ما



عندك يا ثمامة؟)). قال ثمامة: عندي ما قلت لك؟! ولم يزد على ذلك شيئاً وإنما اقتصر على هذا الإجمال تفويضاً إلى جميل خلقه صلى الله عليه وآله وسلم وإذا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: ((أطلقوا ثمامة))!! وهكذا حُلَّ رباطه وأطلق سراحه بعفو نبوي غير مشروط.. بعد أن قضى ثلاثة أيام في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم امتلأ فيها سمعه ومرآه بمشاهد النبوة وآيات القرآن، ولذا خرج ثمامة من المسجد بقلب غير القلب الذي دخل به.

فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل فيه ثم دخل المسجد فوقف بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قائلاً: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.. يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ. والله ما كان دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحب الدين إليّ، والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إلي. وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة.. فماذا ترى؟!

فبشره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالخير وأشار إليه أن يمضي في عمرته. فمضى ثمامة إلى مكة فطاف وسعى وأظهر إسلامه مراغماً لأهل مكة. فقال له قائل: أصبوت؟ قال ثمامة: لا ولكن أسلمتُ مع محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ثم رجع إلى اليمامة فمنع قومه وهو سيدهم أن يحملوا إلى مكة شيئاً..

فأضرّ ذلك بقريش فكتبوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يذكرونه بصلة



الرحم التي جاء بها ((إنك تأمر بصلة الرحم)). فكتب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى ثمامة يأمره أن يُخلي بين قومه وبين الحمل إلى مكة.

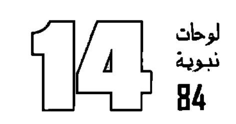
فعادت حنطة اليمامة وميرتها إلى مكة بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

●●● وتُشرق من هذه القصة معانٍ مضيئة منها:

● 1 - تتضح قوة شخصية ثمامة وأنفته، فبرغم وقوفه بين يدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم أسيراً موثقاً إلى سارية ينتظر احتمالاتِ الموت أحدها إن لم يكن أولها -فيما يظن- إلا أنه كان رابط الجأش في خطابه مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واضحاً في عرض خياراته قويّاً في طرحها فلم تظهر في عبارته معاني الاستجداء فضلاً عن التملق والاستخذاء.. وقد حفظ النبي صلى الله عليه وآله وسلم لثمامة قوة شخصيته هذه فلم تُخدش بمهانة أو إذلال.

ولقد أصبحت هذه القوة التي كانت في الجاهلية ذخراً في الإسلام كما كان ثمامة قويّاً قبل إسلامه استصحب قوته باعتزاز بعد إسلامه، فصدع بإسلامه بين ظهراني قريش، ولما سألوه كان قويّاً في المواجهة وأعلن أنه قد أسلم مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم كان قويّاً في قراره ومنع عنهم حنطة اليمامة حتى يحوجهم لاستئذان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فكان له ما أراد.

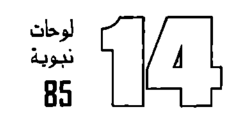
لقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم، يحفظ للناس كرامتهم ومكانتهم ومزاياهم الشخصية ولذا عادت هذه المعاني الشخصية ذخراً للإسلام فيهم لما أسلموا.



● 2 - لما أسلم ثمامة كان على قدر كبير من التشبع والقناعة، مع أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يدعه إلى الإسلام دعوة مباشرة ولا جعل إسلامه ثمن فكاكه، ولكن قناعة ثمامة بالإسلام تكونت من خلال مشاهدته للبرنامج اليومي للرسول صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين له معه في أعظم مجمع لهم وهو المسجد.. وسماعه لآيات القرآن تتلى في صلوات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فكان فيما رآه وسمعه برهانًا عمليّاً بصحة الرسالة وصدق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فآمن هذا الإيمان القوي الواثق، ولقد استمر ثمامة على هذا الوثوق، ولذا كان له المقام المشهود في الثبات على الإسلام يوم ارتد كثير من قومه بني حنيفة مع مسيلمة فكان من الثابتين في الردة والمجاهدين لإعادة الناس إلى الدين.

● 3 - أرغم ثمامة قريشاً أن تستشفع بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم ليصل إليها الإمداد الغذائي من اليمامة. وذكرت النبي صلى الله عليه وآله وسلم بما جاء به من صلة الرحم، وقد كان يمكن أن يرد عليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنكم أول من قطع الرحم التي تطلبون وصلها وكان يمكن أن يذكرهم بقطع الميرة عن بني هاشم في الشعب حين حوصروا، كان يمكن أن يذكرهم بإخراجه والمسلمين من مكة من غير رعاية للرحم ولكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يفعل شيئاً من ذلك كله وإنما كتب إلى ثمامة أن يُطلق الميرة إلى مكة.

لقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتعامل بمنأى عن شهوة التشفي والانتقام. ويتعامل مع خصومه بمبادئه هو لا بمبادئهم هم. ويرعى هدفاً



سامياً وهو تأليف الناس على الدين الذي بعثه الله به إليهم. ولذا فإن هذا الموقف النبوي سيؤثر في قلوب بعض أهل مكة وإن لم يؤثر فيهم جميعاً، وسيُكون رصيداً في نفوسهم يهيؤهم لتقبل الدين بعد ذلك..

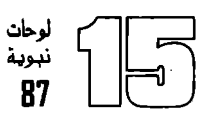


15

سلمة

. أوتي سلمة بن الأكوع -رضي الله عنه- بسطة في الجسم فكان أيدًا شديدًا ربما أغار على الجيش فهزمه وحده، وكان عدّاء لا يُسبق شدًا فهو متوافر القوة، متناسق الجسم واسع الخطو.

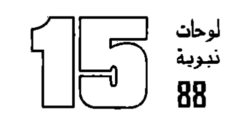
وكان له خبر عاجبٌ يوم الحديبية حينما كانت الرسل تختلف بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل مكة تهيئ للصلح الذي أزمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يعقده معهم، فلما كانت قائلة النهار ذهب سلمة إلى شجرة يستظل بظلها، فكسح شوكها والتقط ما تناثر منها وهيأ لنفسه مقيلاً اضطجع فيه عند أصلها، فجاء أربعة من المشركين من أهل مكة فعلقوا سلاحهم على الشجرة وجلسوا يتحدثون ويقعون في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولقد كان أهون على سلمة أن يسمع سب أبيه وأمه من أن يسمعهم يقعون في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فآذاه ذلك غاية <



الأذى فترك الشجرة لهم وتحول إلى شجرة أخرى ليبعد مسامعه عن وقيعة أولئك المشركين في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فبينا هو كذلك إذ سمع صارخًا ينادي: يا للمهاجرين.. قُتل ابنُ زنيم. فظن سلمة أن المشركين نقضوا مسعى الصلح، فاخترط سيفه ثم شدّ على أولئك الأربعة وهم رقود فأخذ أسلحتهم فجمعها في يدهِ ثم قال لهم: والذي أكرم وجه محمدٍ لا يرفع أحدٌ منكم رأسه إلا ضربته بالسيف. ثم جاء بهم يسوقهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم جاء عمه عامر بتسعين من المشركين حاولوا مناوشة المسلمين يسوقهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فنظر إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال: ((دعوهم يكون لهم بدء الفجور وثناه)) أي: يكون لهم أول الغدر وآخره.. ثم عفا عنهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصرفهم.

● ● ● إن في هذه القصة دلالات مهمة منها:

● 1 - لا نعلم أحدًا أشد حبّاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أصحابه الذين آمنوا به، واستنارت أعينهم برؤية محياه، وتعطرت أسماعهم بسماع حديثه، وصحبوه في أحوال حياته وتقلبات أموره، فاستكن حبه شغاف قلوبهم وخالط لحمهم ودمهم وعصبهم فيالله لسلمة -رضي الله عنه- وهو يسمع مسبّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من رهطٍ من المشركين يشاركونه ظل الشجرة التي يقيل تحتها، فكم قاسى حينئذٍ من الألم النفسي، وكم تدفقت في دمائه زخات الحنق والغضب ممّا سمع، ولكنه كظم غيظه وسيطر على عواطفه



ولم يفرط منه أي تصرفٍ انفعالي، مع أنه كان في عنفوان شبابه، وفي العشرين من عمره، لقد ترك لهم الظل الذي هيأه لنفسه وتنحى عنهم بعيدًا ليكون بمنأى عن هذا الإيذاء الذي لا يستطيع احتماله، ولم يمنعه أن يُنفذ غضبه ويشفي غيظ قلبه ضعف ولا عجز فقد كان الشجاعَ قلبًا، القوي بدنًا، السريع عَدْوًا، ولكنه تعامل مع مشاعره بانضباطٍ كامل، بعيدًا عن أي تصرفٍ يمكن أن يتداعى إلى تطوراتٍ غير محسوبة، وتحمل الألم النفسي باصطبارٍ جميل وبصيرة نافذة، وحتى عندما سمع الصارخ ينادي بما يدل على غدرٍ أو مقتلة لم يُبادر إلى قتل هؤلاء مع أن الفرصة كانت له مواتية، فقد علقوا أسلحتهم فهم عزل، ورقدوا بغير تهيئ أو احتراز، ولكنه اكتفى بسوقهم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليكون التصرف من المرجعية العامة للمسلمين.

إن سلمة رضي الله عنه يُقدم للأمة من خلال هذا الموقف درسًا بليغًا في الانضباط وقيادة العواطف والسيطرة على مشاعر الانفعال. وعدم الاندفاع لردة فعلٍ غير محسوبة أو تصرف غير رشيد رغم قوة المؤثر وشدة الاستثارة.

● 2 - كما يلفتنا التعالي الأخلاقي الذي تعامل به النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع هؤلاء الذين وقعوا فيه بالمسبة والتنقص، ومع التسعين الذين جيء بهم إليه وهم يحاولون مناوشة المسلمين، ومع ذلك عفى عن الجميع وتركهم يبوؤن بأول الغدر وآخره، وكان عفوًا نبويًّا كريماً، حيث لم يصدر منه صلى الله عليه وآله وسلم لهؤلاء توبيخٌ أو ملاومة، وإنما هو الخلق العظيم والصفح الجميل.

لقد كان أمام النبي صلى الله عليه وآله وسلم هدفٌ كبير واضح، وهو أن يتم

الصلح بينه وبين أهل مكة، ولذلك لم يسمح لهذه الاستفزازات المتكررة من رعاع المشركين أن تعرقل مساعيه أو تحرف وجهته عن هدفه، فكان أقوى من هذه الاستثارة، فحجمها بحجمها الطبيعي ضمن الحدث الذي يعايشه، والهدف الذي يصمد إليه، ولذا انتهى الأمر إلى ما أراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتم الصلح وكُتبت الصحيفة، وحصل بذلك الفتح المبين وعاد صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة وآيات الله تتنـزل عليه ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾.

إن عدم وضوح الأهداف وفقدان الخطة للعمل يجعل الأمة مرتهنة بردّات الفعل المتذبذبة. وإن الاستجابات الفردية غير المدروسة يمكن أن تعرقل مسيرة منطلقة، وتهدر فرصًا ضخمة، وتجهض أهدافًا كبيرة.

فصلوات الله وسلامه على من أنزل الله عليه الكتاب وآتاه الحكمة ((ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا)).



16

أمامة

... بينما الصحابة ينتظرون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليُصلي بهم صلاة الظهر أو العصر وقد دعاه بلال إلى الصلاة إذ خرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإذا هو يحمل على عاتقه أمامة ابنة بنته زينب، وأقيمت الصلاة وسُويّت الصفوف، وقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مصلاه ثم كبّر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للصلاة والصبية على حالها قد ارتحلت عاتقه الشريف حتى إذا أراد أن يركع أخذها فوضعها برفقٍ في الأرض، ثم ركع وسجد حتى إذا فرغ من سجوده أخذها فاحتملها على عاتقه مرّة أخرى ثم قام حتى أتمّ صلاته والصبية على عاتقه إذا سجد وضعها وإذا قام حملها.

● 1 - يبين هذا المشهد كيف كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعيش حياته ببساطة وعفوية، حيث

يخرج من بيته إلى الصلاة حيث يحتشد الناس في المسجد وعلى عاتقه طفلة صغيرة هي ابنة بنته في مشهدٍ هو أبعد ما يكون عن التواقر المتكلف ومراسم الهيبة المصطنعة ولكنه الوضوح في الحياة البشرية والتجاوب التلقائي مع المشاعر الإنسانية، ومع ذلك فإن بساطته صلى الله عليه وآله وسلم لم تنقص من مهابته قد أُلقيت عليه المهابة وكسي بالوقار والجلال ولكنه كان بسيطًا في عظمته، عظيمًا في بساطته، واضحًا في بشريته ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾.

● 2 - إن مشهد الطفلة وهي ترتحل عاتق النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتعصب بيديها الصغيرتين رأسه متشبثة به صلى الله عليه وآله وسلم يكشف أن هذا المشهد امتدادٌ لمشهد قبله كان داخل بيت النبوة، ويوحي بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان في بيته بحال مناغاة وملاعبة لهذه الطفلة، وعندما أراد أن يخرج للصلاة كانت في أوج تعلقها به فلم تتركه يخرج ولم يتركها تبكي وإنما احتملها على عاتقه وخرج بها في مشهد إنساني يضج بالمشاعر الأبوية الدافقة والرحمة النبوية الغامرة.

● 3 - خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلى عاتقه بُنية أنثى والأنوثة في هذا المشهد مضاعفة. فهي بنت بنته. ثم يخرج بها إلى الصلاة أمام صفوف المصلين ويُصلي وهي على عاتقه ليُقدم درسًا عمليًّا في الحفاوة بالبنات. وليقضي على بقايا جاهلية في النفوس والتي كانت تميل مع الأبناء كل الميل وتزدري البنات ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ

الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾. فما أبعد المفارَقة بين من يتوارى عن القوم لأنه بُشر بالأنثى وبين من يخرج إلى حشود الناس وعلى عاتقه البنت الأنثى.

● 4 - إن هذا الحنان والرحمة بهذه الصبيّة الصغيرة هو بـرٌّ تتسع دائرته لتشمل أمها زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم التي ستعيش فرحة مضاعفة لمكانة ابنتها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويا لله لقلب زينب لو قد سُئلت أين ابنتها، فأجابت: حملها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخرج بها إلى الصلاة!!

إن البر بالبنات يتجاوزهن إلى البر بأبنائهن وبناتهن فتتسع دائرته وتتابع حلقاته.

● 5 - إن الذي حمل بنت بنته في صلاته، يضعها إذا سجد ويحملها إذا قام هو الذي قال: «وجُعلت قرة عيني في الصلاة» فهو أعظم الخلق خشوعاً وتعظيماً لقدر الصلاة. ومع ذلك لم يكن في حمله لبنته في صلاة مفروضة على هذه الصفة إخلال بحق الصلاة ولكن إيضاح لجوانب اليسر في الشريعة، ولذا علّق الإمام الذهبي على هذه القصة بقوله: فماذا يفعل الفقيه المتنطع بذلك؟!

وليس ببعيد أن نقول أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يؤدي عبادتين في وقت واحد، صلاته لربه وإحسانه لبنته وبنت بنته وأنه جمعها في هذا المقام.



17

أبو تراب

. خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى ابنته فاطمة يزورها على عادته في تعاهدها بالزيارة، وكان ذلك في قائلة النهار، فلما وصل إليها لم يجد علياً في البيت وهي ساعة يكون فيها الأزواج في بيوتهم، فقد كان من مألوف عادة العرب القيلولة في البيوت مع الأزواج ولذا سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ابنته قائلاً: «أين ابن عمك؟». وكأنما شعر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن شيئاً ما حصل بينهما أدى إلى خروجه ولذا استعطف النبي صلى الله عليه وآله وسلم قلب ابنته على زوجها بذكر القرابة القريبة بينهما «أين ابن عمك؟»!

قالت فاطمة رضي الله عنها: كان بيني وبينه شيء فغاضبني فخرج فلم يقِل عندي. قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لإنسان معه: «انظر أين هو؟» فبحث عنه فوجده نائماً في ظل جدار المسجد، فعاد إلى النبي صلى الله عليه

وآله وسلم فقال: يا رسول الله هو في المسجد راقد! فذهب إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإذا هو مضطجع قد سقط رداؤه عن جنبه وأصابه التراب، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يمسح التراب عن جنبه بيده الشريفة ويقول مداعباً: ((قم أبا التراب، قم أبا التراب)).

● ● ● وفي القصة وقفات منها:

● 1 - تواصل النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع ابنته في بيت الزوجية وتعاهدها بالزيارة، فلم يقف عند حقه كأب ينبغي أن يكون هو المقصود بالزيارة وإنما كان يبادر بزيارتها في بيتها، كما كانت هي تزوره في بيته صلى الله عليه وآله وسلم في مشهد من تعاطي العطف الأبوي بين المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وسيدة نساء العالمين رضي الله عنها.

● 2 - الأدب العالي والذوق الرفيع لدى فاطمة رضي الله عنها حينما عبرت عما جرى بينها وبين زوجها بتعبير لطيف مجمل ((كان بيني وبينه شيء فخرج)) ولم تسترسل بذكر التفاصيل ولم تعرج على تحديد المسئولية في الخطأ وإنما جعلته أمراً مشتركاً ((كان بيني وبينه)).

ولا عجب من هذا الأدب فهي البضعة النبوية الدارجة في بيت النبوة حيث تتلى آيات الله والحكمة، أما عندما تجعل المرأة لسانها نافذة مفتوحة على بيتها فإنها تفقد خصوصيتها وتوسع دائرة مشاكلها ولا تتحكم في التداعيات التي تنتج عن دخول أطراف عديدة في مشكلة صغيرة.



● 3 - تجاوب النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع الإجمال بترك الاستفصال. فلم يسأل فاطمة: ما هو الشيء الذي كان بينكما؟ ولم يحوجها إلى سرد تفاصيل ما جرى، وإنما تجاوز ذلك بالبحث عن زوجها الذي خرج مغاضباً، وهذا أسلوب حكيم في التعامل مع هذه النوعية من المشاكل الزوجية العابرة، فإن دخول الكبار فيها يجعلها تكبر والتعامل معها بشكل طبيعي ومن دون تصعيد يبقيها صغيرة عابرة!!

● 4 - تعامل النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع زوج ابنته الذي غاضبها بأبوة حانية تشعره أن أبوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم شاملة لهما جميعاً فهو صلى الله عليه وآله وسلم الذي يأتي إليه حيث هو نائم، ويمسح بيده الشريفة التراب عن جنبه، ويلاطفه بقوله: ((قم أبا التراب)) وهي ملاطفة تؤنس النفس، وتدل على عدم وجود أي قدر من العتب، وإنما الأبوة والحب من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لصهره وابن عمه علي رضي الله عنه.
فتأمل كرم خُلق النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث توجه نحو علي ليترضاه، ومسح التراب عنه ليبسطه، وداعبه بالكنية المأخوذة من حالته، ولم يعاتبه على مغاضبته لابنته مع رفيع منـزلتها عنده.

● 5 - في تصرف علي رضي الله عنه حكمة في التعامل مع بعض الخلافات الزوجية والتي يكون الغضب حاضراً فيها، فإن خروجه من البيت وقيلولته في المسجد قاطع لتواصل المراجعة في الكلام واللجج في الخصام، وفرصة لتهدأ المشاعر ويسكن الغضب وتعود النفوس إلى طبيعتها في المودة والرحمة، ولذا

فإن هذا التباعد القليل في مثل هذا الوضع هو من الهجر الجميل الذي يعيد النفوس إلى سابق صفائها، ويُبدد ثورة الغضب ويطفئها.

● 6 - بقي أثر هذه الملاحظة عذباً في نفس علي رضي الله عنه واستمر سروره بها غامراً، فكان أحب الأسماء إليه أن يدعى به هو «أبو التراب» لدعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم له به في ذلك الوقت.



18

هذه وولدها

جيء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بسبي من سبي هوازن، وإذا بين يدي السبي امرأة تسعى وقد زاغ بصرها وتحلّب ثدياها، تبتغي رضيعها الذي فقدته في السبي، وكان منظر ذهولها ولهفتها وفزعها لافتًا إليها الأبصار، وإذا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ينظرون إليها، فبينا هي كذلك إذ وجدت رضيعها فأخذته فألصقته ببطنها ثم ألقمته ثديها ترضعه لبنها وحنانها، وهي في حالٍ من التأثر العاطفي الشديد أن وجدته بعد أن أخذها الهلع خوفًا عليه وذهبت بها ظنون هلكته كل مذهب.

وكان منظرًا غاية في التأثر والتأثير، وإذا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجذب أبصار أصحابه إلى هذا المشهد قائلاً: «أترون هذه طارحة ولدها في النار؟». وكان سؤالاً يحمل استفهامًا مثيرًا. فإن ما رأوه من حال هذه المرأة يدل على أنها كادت أن تفقد >

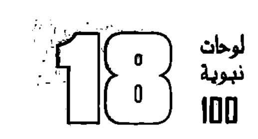


عقلها لما فقدت رضيعها، فكيف تلقيه في النار! ولذا قال الصحابة: لا والله يا رسول الله، وهي تقدر على أن لا تطرحه. عندها سكب النبي صلى الله عليه وآله وسلم المعنى العظيم بعد هذه الاستثارة الذهنية قائلاً: «والله لله أرحم بعباده من هذه بولدها».

●●● نتبين من هذه القصة:

● 1 - الطريقة التربوية النبوية الرائعة في التعليم لإيصال المعاني بحشدٍ من المؤثرات التي تزيد المعنى جلاءً وتجعلها ذات وقع مؤثرٍ في النفس، لقد كان مشهد المرأة وحالها وسيلة إيضاح كبيرة استخدمها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثم زاد على ذلك الاستثارة الذهنية والوجدانية بسؤاله: «أترون هذه طارحة ولدها في النار؟». وهو سؤال يستثير الذهن لترقب ما بعده، ويجعل النفس في حال تشوّفٍ للمعنى الذي سيتبع هذا السؤال، ثم أتبع ذلك بضرب المثل بحال هذه المرأة ليتضح المعنى ويعظم وقعه على القلوب «لله أرحم بعباده من هذه بولدها» فصلوات الله وسلامه على خير معلم للناس الخير الذي جمع في تعليمه لطف التنبيه وجلاء التوضيح وحسن التأتي في إيصال المعاني للنفوس وتربية القلوب بها.

● 2 - إن هذا المشهد كان يمكن أن ينتهي من دون أن يترك أثرًا غير علامة التعجب من فرط عاطفة الأمومة في هذا الموقف، ولكن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم اقتنص الفرصة ليجعل منه درسًا ربانيًا يفيض منه على القلوب



معاني الرحمة الإلهية، لقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يغتنم كلّ فرصةٍ يمكن أن يُنفذ فيها علمًا، ويختار الظرف الأنسب لإيصال العلم ويُراعي تهيئ المتلقين واستشرافهم لما سيقول، ولذا كان هذا المشهد الفرصة المواتية التي اغتنمها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليذكر فيها برحمة أرحم الراحمين وكان وقع قوله الوجيز مربوطًا بهذا المشهد أبلغ من كلامٍ طويلٍ يمكن أن يقال في هذا المعنى.

فهل نحاول تقفي هذه البراعة النبوية في اقتناص فرص التأثير وبث المعاني التربوية بما يناسبها؟

● 3 - لم يكن هذا الدرس النبوي في حلقة تعليم أو على عتبة منبر، وإنما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه حوله يستقبلون مقدم هذا السبي، ومع ذلك جعل منه النبي صلى الله عليه وآله وسلم مقامًا للتعليم وذلك أن تعليم النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن مختزلاً في خطبة يخطبها أو موعظة يلقيها ولكنه كان علمًا مبثوثًا في الحياة كلها، فجلوسه على مائدة الطعام فرصة تعليمية ودخوله للسوق فرصة تعليمية، ومشيه في الطريق ومجلسه مع أصحابه مجالات للتعليم والدعوة بمثل هذه الومضات المختصرة البليغة المقرونة بمجريات الحياة، ولذا ارتوت نفوس الصحابة وتضلعت من علم النبوة الذي كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبثه في نواحي حياتهم وتقلبات أمورهم.

وفي ذلك دلالة لنا أن نجعل تربيتنا لأبنائنا ومن حولنا مقرونة بأنشطة الحياة وألا نقتصر في إيصال المعاني التربوية على النصائح الطوال، وأنه يسعنا اختـزال



التوجيه التربوي في أحيانٍ كثيرة في جرعات مختصرة ولكنها بليغة ومؤثرة لأنها تأتي في مناسبتها من دون تكلف ولا إملال، فيحسن وقعها ويعظم أثرها.

● 4 - هذا المعنى الذي وضحه النبي صلى الله عليه وآله وسلم من خلال هذا المشهد، وهو عظيم رحمة الله بعباده، يوقظ في القلوب الرجاء ويبعث في النفوس الأمل، فلا يعرف الناس رحمة أشد من رحمة الأم بولدها وأشد ما تكون رحمة الأم بولدها في حال ضعفه وشدة حاجته إليها وهي حال الرضاعة والطفولة المبكرة، وتتضاعف هذه الرحمة حين يكون طفلها عرضة لخطر تخشى عليه منه، حينئذ تتضاعف رحمة الأمومة أضعافًا مضاعفة، وكان هذا حال المرأة التي رآها النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه.
ثم بيّن أن رحمة الله بعباده أعظم من رحمة الأمومة في هذه الحال. إن هذا المعنى يملأ قلب المؤمن بالطمأنينة والرضى، فإن عمل صالحًا ذكر عظيم رحمة الله فرجى قبوله، وإن قارف خطيئة ذكر رحمة ربه ورجى مغفرته، وإن نزلت به شدة تذكر عظيم رحمة الله فدعاه وهو موقن أنه لن يضيعه، وإن نزل به الموت تذكر أن منقلبه إلى رب هو أرحم به من أمه التي ولدته فحسُن ظنه بالله واشتاق إلى لقائه.



19

الشيخان

هما شيخا قريش، وذوي السابقة الأولى في الإسلام، وصاحبا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القريبان إليه فما يكادان يفارقانه أو يفترقان عنه حتى كان صلى الله عليه وآله وسلم كثيراً ما يقول: ((ذهبت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر)).

ومع هذه الصلة الوثيقة فقد حدث بينهما موقف عاجب، كان له أثره المؤثر في نفس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقد حصلت بينهما محاورة ومراجعة في الحديث، وكان أبو بكر رجلاً فيه حدة فبدرت منه بادرة أسرع فيها القول غضب منها عمر، ثم أسف منها أبو بكر، فانصرف عمر مغضباً وتبعه أبو بكر نادماً يسأله أن يغفر له، ولكن سَورة الغضب في نفس عمر كانت شديدة فأبى عليه ومضى عنه حتى دخل داره وأغلق بابه في وجه أبي بكر، لقد كان غضب عمر شديداً ولكن أبا بكر كان <

أشد منه ندماً، ولذا فإنه لما عجز عن استعتاب عمر واسترضائه ذهب فزعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فما فجئ الصحابة في مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا وأبو بكر قد أقبل مسرعاً آخذاً بأطراف ثوبه حتى بدت ركبتاه. فلما رآه النبي صلى الله عليه وآله وسلم مقبلاً قال: «أما صاحبكم هذا فقد غامر» أي دخل في غمرة أمر عظيم، حتى إذا دنا أبو بكر من النبي صلى الله عليه وآله وسلم سلَّم عليه ثم جلس وقال: يا رسول الله إنه كان بيني وبين عمر شيء فأسرعت إليه، ثم إني ندمت على ما كان مني فسألته أن يغفر لي فأبى عليّ، فتبعته حتى دخل داره فأقبلت إليك يا رسول الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يغفر الله لك يا أبا بكر، يغفر الله لك يا أبا بكر، يغفر الله لك يا أبا بكر».

أما عمر -رضي الله عنه- فسرعان ما أطفأ غضبَه شديدُ حبه لأبي بكر ومعرفتُه بقدره وسابقته، وندم أن أبا بكر سأله أن يغفر له فأبى عليه، فخرج من منـزله يتطلب أبا بكر ليُعتبه ويبادله التصافح والرضا، فأتى منـزله فسأل: أثم أبو بكر؟ فقال أهله: لا ولعله ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأتى عمر إلى مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعله يلقى أبا بكر هناك، فلما جلس جعل وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتمعر ويتلون غضباً من عمر أن اعتذر إليه أبو بكر فلم يقبل منه، حتى عرف من في المجلس شدة غضب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلما رأى ذلك أبو بكر أشفق، وخشي أن يكون من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى عمر ما يكره فجثا على ركبتيه وأقبل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم قائلاً: يا رسول الله، والله أنا كنت أظلم، والله أنا كنت أظلم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أيها الناس، إن الله

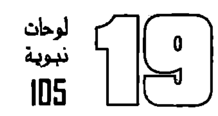
ابتعثني إليكم فقلت: يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً. فقلتم: كذبت. وقال أبو بكر: صدقت. وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركون لي صاحبي، فهل أنتم تاركون لي صاحبي، فهل أنتم تاركون لي صاحبي)).

فما أوذي أبو بكر بعدها من أحد لِما رأى الصحابة من تعظيم النبي صلى الله عليه وآله وسلم له وإظهار حقه ومكانته رضي الله عنهم وأرضاهم.

●●● وهنا نلحظ معاني منها:

●1 - أن مجتمع الصحابة رضوان الله عليهم هو المجتمع المثالي أخلاقيّاً؛ وذلك للتربية العالية التي رباهم عليها صاحب الخلق العظيم صلى الله عليه وآله وسلم، وللسمو النفسي الذي يترقون إليه بصحبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومع ذلك تحصل بينهم هذه النـزعات البشرية، فلو كان مجتمع يخلو من ذلك لكان مجتمع الصحابة رضوان الله عليهم، ولو كان أحد من الأمة يستثنى من ذلك لكان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وهذا يلفتنا إلى النظرة الواقعية إلى أنفسنا ومجتمعنا، فلا نكون قساة على أنفسنا مغرقين في المثالية حينما تبدر منا مثل هذه البوادر ((فقد خُلِق الإنسان خلقاً لا يتمالك)) ولكن العبرة بالتحكم بحجمها إذا غُلبنا على التحكم بصدورها، ثم إيقاف تداعياتها واحتواء أثرها، وسرعة المراجعة والرجوع بدلاً من اللجج والتمادي.

●2 - كما نلاحظ سرعة الفيئة بعد هذا الانفعال العابر عند أبي بكر وعمر وقوة الإصرار على تدارك ما بدر منهما، فأبو بكر بعد أن بدرت منه هذه البادرة التي

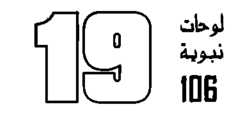


أغضبت عمر عاد يستعتبه ويطلب مغفرته، وعمر رضي الله عنه ما إن سكن غضبه حتى ذهب هو يبحث عن أبي بكر ويتتبعه في بيته وحيث يظن أنه يلقاه.

كما يلفتك هذه الحساسية المرهفة في نفس أبي بكر رضي الله عنه بحيث يأتي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم مسرعاً مشمراً ثيابه وقد ظهرت عليه علامات الفزع، وما ذاك إلا لأن عمر لم يغفر له ما بدر إليه منه، ونحسب أنه إنما جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم مستشفعاً به ليصلح ما بينه وبين أخيه عمر، ولذا أشفق على عمر لما رأى غضب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وخشي أن يكون من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى عمر ما يكره وجعل يناشده «أنا والله يا رسول الله كنت أظلم» مما يدل على أن نفس أبي بكر على عمر كانت حينها راضية مرضية، ولذا فإن هذه النفوس الكريمة لا يعمر فيها الحقد ولا تنبت فيها الإحن، و ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾.

● 3 – أن هذه المواقف وإن أثرت في وقتها إلا أن تأثيرها انفعالات عابرة وتبقى الأخوة الراسخة هي الثابتة والباقية، فأبو بكر رضي الله عنه الذي غضب من عمر هذا الغضب ثم لقي منه هذا الإعراض هو الذي لما حضرته الوفاة لم يكن في قلبه أزكى وأبر من عمر ليعهد إليه بولاية أمر المسلمين، وأن يكون الخليفة عليهم من بعده، وأما عمر -رضي الله عنه- فهو الذي بلغ من تعظيمه لأبي بكر وحبه له أن يقول: «لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إلي من أن أكون أميراً على قوم فيهم أبو بكر».

● 4 – هذا العرفان العظيم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأبي بكر،



والتذكير بسابقته وبلائه بنفسه وماله، ولذا غضب النبي صلى الله عليه وآله وسلم له هذا الغضب حتى تمعر وجهه، ثم جعل يناشد أمته أن تعرف لصاحبه حقه: ((فهل أنتم تاركون لي صاحبي؟)).

وفي ذلك وفاء كريم من النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأبي بكر، وإظهار لسبقه الذي لا يلحق، وعظيم مكانه في الأمة، وكبير حقه عليها رضي الله عنه وأرضاه، كما أن ثمة إشارة إلى أن ذوي المناقب الكبيرة يعاملون بما يليق بفضلهم ومكانتهم، وتُعرف لهم في المواقف فضائلهم وأقدارهم.



20

العبوا

في يوم عيد مبارك كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقاسم زوجه عائشة بهجة العيد في بيتها، ويعيش معها فرحته، إذ سمع جلبة وهزيجاً فإذا هم الأحباش قد دخلوا ساحة المسجد ومعهم حرابهم ودرقهم (تروس من جلد) وجعلوا يرقصون في المسجد على طريقتهم ويهزجون بلغتهم، وكان مشهدهم طريفًا ومبهجًا فأقبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم على زوجه عائشة رضي الله عنها وناداها: «يا حميراء أتحبين أن تنظري إليهم؟». قالت: نعم، وددت أني أراهم، فوقف لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على باب حجرته وجاءت هي من ورائه فوضعت ذقنها على كتفه، وألصقت خدها بخده، وألقى عليها رداءه يسترها به وهي تنظر إلى لعب الحبشة، والنبي ينظر معها إليهم. ويغريهم بمزيد الحماس في استعراضهم قائلاً: «دونكم بني أرفدة». (وهو لقب الحبشة) وازداد



حماسهم بهذه المشاركة الشعورية من النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهم يرقصون بين يديه ولم يسعفهم في التعبير إلا لغتهم، فجعلوا يتكلمون بكلامهم الذي لا يفهمه فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ((ما يقولون؟)). قيل: يقولون: محمد عبد صالح. قالت عائشة لم أعلم من كلامهم إلا قولهم: أبا القاسم طيبًا أبا القاسم طيبًا.

وبينما هم كذلك إذ دخل عمر المسجد فرأى مشهدًا لم يعهده، فسارع بطبيعته المبادرة إلى الإنكار، وأهوى بيده إلى حصباء المسجد يرميهم بها، مستنكرًا فعلهم ذلك في ساحة مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: ((دعهم يا عمر فإنهم بنو أرفدة)). (أي أن هذا شأنهم وطريقتهم). ثم أقبل عليهم قائلاً: ((أمنًا بني أرفدة)). (أي: العبوا بأمان) وذلك حتى يهدئ من روعهم بعد أن أفزعهم عمر. ثم جعل يستثيرهم قائلاً: ((العبوا بني أرفدة، حتى تعلم اليهود والنصارى أن في ديننا فسحة، إني بعثت بحنيفية سمحة)).

واستمر اللعب والأهازيج والاستعراض بالمهارات الحربية الحبشية بالحراب والدرق ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واقف لعائشة ينتظر فراغها من الاستمتاع بالمشاهدة حتى إذا ظن أنها اكتفت بما رأت قال لها: ((أما شبعت؟! أما شبعت؟!)). وكانت جارية حديثة السن عروبًا حريصة على اللهو فما يكفي رسول الله من المشاهدة لا يكفيها، ولذا قالت: يا رسول الله لا تعجل عليّ، فقام صلى الله عليه وآله وسلم لها حتى إذا ظن أنها اكتفت، قال لها: ((حسبك؟)). قالت: يا رسول الله لا تعجل عليّ. حتى إذا طابت نفسها من النظر إلى اللهو استشرفت إلى حاجة نفسية أخرى لا تقل في وجدانها أهمية عنها، وهي أن تري منزلتها في نفس النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومكانتها منه.



ولذا استأنته لما قال لها: ((حسبك؟)). قائلة: لا تعجل عليّ، قالت: وما لي حب النظر إليهم ولكن أحببت أن يبلغ النساء مقامه لي ومكاني منه. حتى إذا استوفت رغباتها النفسية من اللهو والشعور بالمنزلة والمكانة عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم وملّت من قيامها ذلك. قال لها النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((حسبك؟)). قالت: نعم. قال: ((فاذهبي)).

ولم يملّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قيامه لها حتى ملّت هي، ولم ينصرف حتى انصرفت هي، وبقيت ذكرى هذا المشهد ومذاقه في نفس عائشة رضي الله عنها فكانت تتحدث عنه وتقول: قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أجلي ولم ينصرف حتى كنت أنا التي انصرفت.

●●● وثمة وقفات مع هذه القصة:

● 1 - جميل الرعاية النبوية لمشاعر زوجه والتلطف في إسعادها، وإدخال الأنس إلى نفسها، فهو صلى الله عليه وآله وسلم الذي بادر بالعرض عليها أن تشاهد لعب الحبشة، وناداها لذلك بأسلوب التمليح والتدليل ((يا حميراء)) وهو وصف جمال في البيئة العربية، ثم وقوفه لها بهذه الطريقة الحميمية التي تشعر بالمودة والرحمة، خدها إلى خده وذقنها على عاتقه، ثم قيامه لها ولم ينصرف حتى انصرفت هي، إنها باقة من لمسات الحنان والإسعاد والإيناس والإغداق لمشاعر الرحمة والحب.

● 2 - اختيار الحبشة المسجد للعبهم يوم العيد دلالة على أن المسجد لم يكن



صومعة عبادة بل ميدان حياة تُقام في الشعائر وتُعلن فيه المشاعر، وكما تُقام فيه الصلاة وتجمع الصدقات وتُقسم الغنائم، فهو ساحة اجتماع لإعلان الفرح، وبذا ارتبطت الحياة بالمسجد واستوعب المسجد شعب الحياة.

● 3 - اتساع بوابة الإسلام بحيث تستوعب الثقافات المتنوعة فالحبشة عبروا عن فرحهم بأسلوبهم الخاص الذي لا يشبه أسلوب العرب فاللعب بالحراب حضارة حبشية وأهازيجهم بلغتهم الحبشية.
ومع ذلك استوعبهم مجتمع الرسالة الأول من غير أن يفقدوا خصوصيتهم وطريقة تعبيرهم.

● 4 - مع أن هذا الموقف كان لحظة أنس ولهو، إلا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم جعله موقف دعوة وتعليم ومرّر من خلاله بيانًا عمليًا وقوليًا: «حتى تعلم اليهود والنصارى أن في ديننا فسحة إني بعثت بالحنيفية السمحة». لقد كانت كل مناحي حياته صلى الله عليه وآله وسلم متشربة لمهمته العظمى الدعوة وبلاغ الرسالة.

● 5 - قال الحافظ ابن حجر: في هذا الحديث من الفوائد: مشروعية التوسعة على العيال أيام الأعياد بأنواع ما يحصل لهم به بسط النفس وترويح البدن، وأن إظهار السرور في الأعياد من شعار الدين. أ.هـ.

● 6 - أقرّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم الحبشة على أسلوبهم في الاحتفال

بالعيد والذي لم يكن مألوفًا لدى العرب، مما يدل على اتساع أنواع التعبير عن الفرح بالعيد وتنوع أشكال الاحتفاء به بما يتناسب مع اختلاف الناس في أوطانهم وأزمانهم وأعمارهم.

● 7 - أكد النبي صلى الله عليه وآله وسلم المساحة الواسعة من السماحة واليسر في رسالته، فليس دينه مختصرًا في قائمة محظورات أو محاصرًا بخنادق لمحرمات، ولكن ثمة السماحة والفسحة، وهي الأصل في أمور الحياة، والتحريم استثناء قليل من ذلك ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ وبهذا وضعت عن البشرية الآصار التي كانت في الأديان السابقة، فلتعلم اليهود والنصارى أن في دينه فسحة وأنه جاء بالحنيفية السمحة وأنه الذي يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.



21

ذو العقيصتين

من وادي نعمان حيث انفساح الأرض تحف به الجبال الشاهقة تتطاول كأنها تحمل على أكتافها قبة السماء انطلق من هناك تخب به راحلته متوجهًا تلقاء يثرب يقطع الطريق فيها في نحو ثمانية أيام، ولم تكن له في المدينة تجارة يتربحها ولا قريب يزوره، ولكن حاجته لُقيا ذاك الذي يقول إنه رسول الله؛ يستثبت منه خبر النبوة وحقيقة الرسالة وليحسم قراره في الدين الذي سيدين لله به.

وصل المدينة النبوية، وأناخ بعيره على باب المسجد، ثم عقله ودخل، وكان أعرابيًا جلدًا جعد الشعر قد ضفّره بضفيرتين عقصهما، فأقبل حتى وقف على الصحابة وهم جلوس ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين أظهرهم، فلم يعرفه من بينهم فلما دنا إليهم سأل: أيكم ابن عبد المطلب؟ وكان رسول الله بينهم كأحدهم ليس له شارة تميزه ولا حال تشهره، فلم يجدوا ما يدلونه

به على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا وضاءته وبهاءه، فقالوا: هو ذاك الأبيض المتكئ، فتوجه إليه، ووقف بين يديه، وناداه كما ينادي غيره: يابن عبد المطلب، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «قد أجبتك أنا ابن عبد المطلب». قال: محمد؟ قال: «نعم». ومع ما في هذا النداء من جفاء إلاّ أنه أتبعه بنداء أشد منه قائلاً: إني سائلك فمشدّد عليك في المسألة، فلا تجد عليّ في نفسك. فأجابه خير معلم للناس الخير قائلاً: «لا أجد في نفسي، سلْ عما بدا لك». فلم يكن في دينه ولا تعليمه مناطق محظورة، ولا زوايا معتمة، ولكنه الوضوح والنصاعة.

فسأل وكانت أسئلةً تدل على صفاء العقل ومنهجية التفكير، فكان أول ما سأل أن قال: من خلق السماء؟ فأجابه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الله». قال: فمن خلق الأرض؟ قال: «الله». قال: فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل؟ قال: «الله». قال: فإني أسألك بالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل، إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك: آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم نعم». قال: فإني أسألك بالذي أرسلك: آلله أمرك أن نعبده وحده وأن نخلع هذه الأوثان التي كان آباؤنا يعبدون معه؟ قال: «اللهم نعم». قال: فإني أسألك بالذي أرسلك: آلله أمرك أن نصلي هذه الصلوات الخمس في يومنا وليلتنا؟ قال: «اللهم نعم». قال: فإني أسألك بالذي أرسلك: آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ فقال: اللهم نعم، قال: فإني أسألك بالذي أرسلك: آلله أمرك أن نصوم شهر رمضان في سنتنا؟ قال: «اللهم نعم». قال: فإني أسألك بالذي أرسلك: آلله أمرك أن

نحج البيت من استطاع إليه سبيلاً؟ قال: ((اللهم نعم)). قال: فإني أشهد ألاّ إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن، وأنا ضِمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر، وأما هذه الفواحش فو الله إن كنا لنتنـزه عنها في الجاهلية -أي أننا كنا نتجنب كثيرًا من الفواحش في الجاهلية- فنحن في الإسلام أكثر تنزهًا عنها.

ثم انصرف إلى بعيره، فحل عقاله وركبه راجعًا إلى قومه، فلم يكن له في المدينة حاجة بعد ذلك.

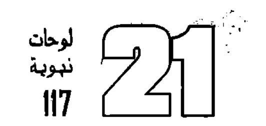
فلما ولّى قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((فقه الرجل، لئن صدق ذو العقيصتين ليدخلن الجنة)). وعجب فقهاء الصحابة من فقه هذا الأعرابي حتى قال عمر: ما رأيت أحدًا أحسن مسألة ولا أوجز من ضِمام.

أما هو فلما وصل إلى قومه اجتمعوا إليه، فكان أول ما صنع أن حطم عظمة أوثانهم الموهومة فنادى قائلاً: بئست اللات والعزى. فعجب قومه من هذه الجرأة على أوثانهم التي كانوا يعبدون!!

فخوفوه ما كانوا يخافونه من ضرر الآلهة وغضبها، وقالوا: مَهْ يا ضِمام اتقِ البرص، اتقِ الجذام.

ولكن ضِمامًا كان قد تجاوز هذه العقيدة وصحح تصوره واعتقاده فقال لهم: ويلكم، إنهما والله ما تضران وما تنفعان، وإن الله قد بعث رسولاً، وأنزل عليه كتابًا استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وقد جئتكم من عنده بما آمركم وأنهاكم عنه.

ولم يزل يحاورهم ويقنعهم حتى ما أمسى من ذلك اليوم في حاضرته من رجل



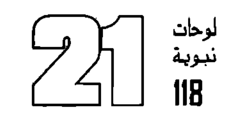
أو امرأة إلا مسلمًا، وسمع الصحابة بصنيعه ذلك فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما سمعنا من وافد قط كان أفضل من ضمام بن ثعلبة.

ومع هذه القصة وقفات:

● 1 - إن قضية تصحيح التدين والتوثق مما يعتقده كانت من الأهمية بمكان عند ضمام بن ثعلبة، ولذلك سافر هذا السفر، وقطع تلك المسافة ليتثبّت عما بلغه عن رسول الله من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وليحسم قراره في دينه السابق، وهذا يبين جِدّيته في التدين، واستعداده لتحمل مسؤولية هذا الدين إذا تبين له صدق هذا الرسول وصحة هذه الرسالة، وهو ما تبين له بين يدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

● 2 - الاندماج الكامل الذي كان يعيشه النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع أصحابه بحيث كان الداخل عليهم لا يميزه من بينهم (أيكم ابن عبد المطلب؟) فلم يكن في لباسه شهرة وليس في حالة تميز، ولذا نهاهم أن يقوموا حوله كما تقوم الأعاجم؛ متباعدًا عن حال أهل التكبر والتعاظم، وبهذا القرب من أصحابه والاندماج معهم صحح تصوراتهم وسلوكهم واستكن حبه في سويداء قلوبهم.

● 3 - كان قدوم ضمام رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن فُتحت مكة ودخل الناس في دين الله أفواجًا ودانت لرسول الله صلى الله



عليه وآله وسلم أكثر نواحي الجزيرة، ومع ذلك خاطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذه المخاطبة، وناشده هذه المناشدة، وشدّد عليه في المسألة ذلك التشديد، ومع ذلك استوعب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعظمة خلقه هذه الثقة في شخصيته والجرأة في خطابه لينطلق هذا الأعرابي بين يديه على سجيّته متباعدًا عمّا تنبو عنه طبيعته من التخاضع والتملق، فكانت قيم الرجال محفوظة بين يديه صلى الله عليه وآله وسلم لا تُنتقص بالإذلال، ولا تُهشّم بالتحقير وإنما كانوا يقفون بين يديه أعزة، وينقلبون منه أكثر اعتزازًا ووثوقًا، ولو كان فظاً غليظ القلب لانفضّوا من حوله.

● 4 - ((سل عمّا بدا لك)) لافتةٌ نبوية أمام طلاب الحق ومتطلبي الهداية، فليس أمامهم أسئلة محظورة؛ لأنه ليس في الدين الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما يُستحى من ذكره، أو يحرج السؤال عنه، أو يقف العقل مأزومًا أمام فهمه واستيعابه، ولذلك فتح النبي صلى الله عليه وآله وسلم باب المسألة على مصراعيه قائلاً: ((سل عمّا بدا لك)). وطمأنه بقوله: ((فلن أجد عليك في نفسي))، وهكذا عندما يجمع المسلم العلم بدينه والثقة به فلن يكون هناك ما يحرجه أن يُسأل عنه.

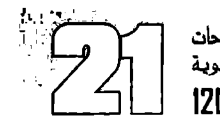
● 5 - لم يكن إيمان ضمام رضي الله عنه برسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لمجرد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل إقسامه عليه بذلك، إذ قد يُقال: إن من كذب في ادّعاء أمر لن يتورع عن الحلف عليه. ولكن هذا القسم النبوي جاء مؤكدًا لدلائل متضافرة على صدق النبوة تواردت على ضمام منها: معرفته

بمضامين دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فكان هو الذي يعرض على النبي صلى الله عليه وآله وسلم شرائع الدين كما بلّغتها رسل النبي صلى الله عليه وآله وسلم إليه ويكتفي من النبي صلى الله عليه وآله وسلم بتصديق ذلك، ففيما دعا إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم دليل على صدق رسالته، كما أن رؤيته للنبي صلى الله عليه وآله وسلم دليل آخر؛ فقد كان محياه صلى الله عليه وآله وسلم محيا الصادق كما قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه: فلما رأيت وجهه واستبنته علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب، كما أن شهرته صلى الله عليه وآله وسلم في أحياء العرب بصدق الحديث إذا حدث دليل آخر؛ فلذلك استحلفه وهو يعلم أنه لم يكن ليصدق في حديثه ويفجر في يمينه، وما كان ليصدق في حديث الناس ويكذب على الله، فصدّقه حينئذ بهذه الدلائل كلها، وهو الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم.

● 6 - «والله لا أزيد على هذا ولا أنقص» بهذا ودّع ضمام رضي الله عنه النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن عرض عليه أركان الإسلام، فقد استعفى من الزيادة والتزم عدم النقصان، ولكنه لمّا جاء قومه وقف فيهم خطيبًا، وانتصب بينهم داعيًا، وحاورهم مجادلاً ومعلمًا حتى أسلموا لله تعالى كلهم.

إن ضمام لم يفهم أن الدعوة داخلة فيما استعفى منه، ولكنها داخلة فيما التزم عدم انتقاصه، ولذا كانت الدعوة أول ما بادر إليه، وهذا من فقهه الذي وصفه به النبي صلى الله عليه وآله وسلم حينما قال: «فَقِهَ الرجل».

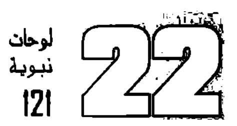




22

مدرسة السوق

. قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من بعض عوالي المدينة -وهي القرى المحيطة بها- فدخل السوق والناس على جانبيه، فمرّ بجدي أسك - وهو الذي يكون معيباً بصغر أذنيه وانكماشها- فتناوله رسول الله بأذنه، ثم رفعه للناس فقال: ((أيّكم يحب أن هذا له بدرهم؟)). وكان سؤالاً عجيباً أن يعرض عليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم شراء تيس ميت مشوه الخلقة قد فقد قيمته التجارية، وهان على أهله حتى ألقوه في السوق فلم يعبأ به أحد، فاستلفت هذا السؤال انتباههم، وأجابوا قائلين: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟، فأعاد عليهم السؤال قائلاً: ((أتحبون أنه لكم؟)) قالوا: لا، فأعاد عليهم السؤال ثالثة: ((أتحبون أنه لكم؟)) فازداد عجبهم لتكرار هذا السؤال العاجب، وقالوا: لا والله، لو كان حيّاً لكان عيباً فيه أنه أسك فكيف وهو ميت، حينها قابل النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذه النفوس المتلهفة >

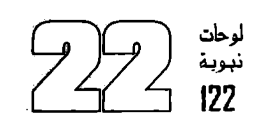


لمعرفة ما بعد هذا السؤال المتتابع فألقى إليهم بالحقيقة التي يقررها لتستقر في أعماق وجدانهم قائلاً: ((فو الله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم!!)).

●●● وبعد فمع هذا الخبر وقفات:

● 1 - هذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قادم من بعض عوالي المدينة وهي نواحيها المتباعدة، وهو مشهد يتكرر في الأحاديث كثيراً؛ فهو يذهب بعد العصر إلى ناحية بني حارثة يتحدث معهم، ويذهب ليشهد جزوراً تنحر في بني سلمة، ويتأخر عن الصلاة؛ لأنه ذاهب إلى بني عمرو بن عوف ليصلح بينهم، ويذهب إلى ناحية بني فلان ليعود مريضاً فيهم.
وهذه تكشف لنا هدياً نبويّاً في التواصل مع أصحابه بحيث كان يغشى نواحيهم ويتعاهدهم في قراهم ودورهم، ولم يكن يعيش عزلة عن الناس أو تباعداً عنهم، وذلك يعمق التأثير في الناس، ويجعل الاقتداء قريباً ومباشراً، و لقد تتابع المؤثرون من حملة الدعوة على ذلك، فكان لهم عمق اجتماعي في الناس ومخالطة رشيدة مؤثرة، ومن قدوات العصر الذين كانوا كذلك الأستاذ حسن البنا، والشيخ عبد الحميد بن باديس، والإمام عبد العزيز بن باز رحمهم الله.

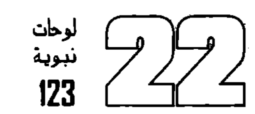
● 2 - الأسلوب النبوي الرائع في التعليم؛ إذ نرى هذا الحشد من المؤثرات في هذا الموقف التعليمي؛ فقد استعمل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسيلة الإيضاح وكانت هذا التيس الأسك الميت، وطرح السؤال لاستثارة الانتباه،



وضرَبَ المثل لتوضيح المعنى، وأدار المعلومة بأسلوب حواري تفاعلي بحيث يشترك الجميع في الوصول إلى النتيجة المعرفية، وكل ذلك في مشهد لم يتجاوز لحظات معدودة، لكن أثرها سيكون عميقاً، ومشهدها سيبقى حاضراً، فصلى الله وسلم وبارك على خير معلم للناس الخير.

● 3 - اختيار النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذه القضية، وهي هوان الدنيا على الله لتكون موعظة في السوق، وبهذا الأسلوب الرائع له مغزاه الدقيق، فإن السوق مظنة الانغماس في الدنيا، والذي قد ينسى النظر إلى الآخرة، فربما جرّأ الإنسان وهو في هذه الحالة على أنواع من التعاملات المحرمة كالغش والكذب والأيمان المنفقة للسلع، واللغو والخصومة ونحو ذلك، وأعظم ما يعصم من ذلك ترائي الآخرة نصب العين، ووضع الدنيا في حجمها الحقيقي، وموازنة زائل الدنيا بالباقي الخالد عند الله، وتذكر المنقلب إليه، والوقوف بين يديه، وهوان الدنيا عليه. وهو ما لفت النبي صلى الله عليه وآله وسلم إليه في موعظته تلك.

● 4 - كان التعليم مبثوثاً في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكانت ميادين الحياة هي قاعات التعليم؛ لأن دينه دين الحياة ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ...﴾ فلم يكن تعليمه مقصوراً على عتبات المنبر أو حلقة المسجد، وإنما اتسعت له عرصات السوق، وفجاج الطرق، وموائد الطعام، وفراش المرض، بل ولحظات الموت وآخر أنفاس الحياة، لقد كان تعليمه التعليم المتنوع المستمر الذي يحيط بمناحي الحياة كلها، ويستوعب أنشطتها على تنوعها.



● 5 - هوان الدنيا المشار إليه في هذا الحديث هو بالنسبة للآخرة، فما الدنيا في عمر الآخرة إلا لحظة أو ومضة، ولذا فإن أهل الدنيا إذا سُئلوا يوم القيامة: كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟ أجابوا: يوماً. ثم يرون أنه كان أقل من ذلك، فيقولون: أو بعض يوم، فاسأل العادين. ونعيم الدنيا وشقاؤها لا يُقاس بنعيم الآخرة وشقائها، فأنعم أهل الدنيا إذا غمس في النار غمسة قال: ما رأيت نعيماً قط. وأبأس أهل الدنيا إذا غمس في الجنة غمسة قال: ما مر بي بؤس قط.

فكيف يُقاس العمر القصير العابر في الدنيا بالخلود الآبد في الآخرة، إن هذه النظرة الشاملة تجعل التعامل مع شؤون الحياة أكثر انضباطاً وانسجاماً مع المبادئ الحقيقية للحياة، وتضع أمور الحياة العابرة كلها في سياقها وحجمها الطبيعي.

إن ذلك لا يعني تعطيل الحياة ولكن ترشيدها، وفتح آفاقها، ولذلك فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي بيّن لأهل السوق هوان الدنيا على الله لم ينكر عليهم قيامهم في السوق، وضربهم في التجارة، وابتغاءهم الرزق.. فهذه كلها مناشط الحياة وضرورتها، ولكنها ستكون أكثر نقاءً وسداداً إذا مارسها الإنسان في الدنيا ونظره ممدود إلى مصيره الأخروي وعمره الأبدي.



23

ألا تعجب

. كانت بريرة أمة مملوكة لأناس من الأنصار؛ فاتفقت معهم على أن تشتري نفسها بتسع أواق من فضة تدفعها لهم في كل سنة أوقية، ثم جاءت إلى أمنا عائشة -رضي الله عنها- تستعين بها في سداد هذه الأقساط، وكان قد بقي عليها خمس أواق، فدفعتها لهم عائشة دفعة واحدة وأعتقتها.

فلما عتقت وتحررت وملكت أمر نفسها أعادت النظر في علاقتها الزوجية فهي قد أصبحت حرة وزوجها مغيث لا زال عبدًا، وهي الآن تملك بحريتها هذه الإبقاء على هذه العلاقة أو إنهاءها، وقد حسمت خيارها وقررت إنهاء رباط الزوجية معه لضعف عاطفة الحب منها له، ولكنه كان شديد التعلق بها يحبها حبًّا شديدًا؛ فلما علم بذلك جعل يتبعها في سكك المدينة يترضاها، ودموعه تنحدر على لحيته، وهي تأبى عليه وتقول: لا حاجة لي فيك. ورآهما النبي صلى الله عليه وآله وسلم على ›

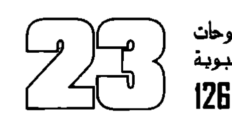
تلك الحال، وكان معه عمه العباس رضي الله عنه فقال لعمه: ((يا عباس، ألا تعجب من حب مغيث لبريرة وبغض بريرة لمغيث)). ثم إن مغيثًا استشفع برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إليها ليكلمها؛ ففعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكلمها فيه، وقال لها: ((لو راجعته فإنه أبو ولدك)). فقالت: يا رسول الله أتأمرني، أشيء واجب علي؟، قال: ((لا إنما أنا أشفع)). فقالت: لا حاجة لي فيه، لو أعطاني كذا وكذا ما كنت عنده.

وتم لها ما أرادت من فراقه مع شفاعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم له وشدة حبه ورغبته فيها.

ولك مع المشهد وقفات:

- 1 - يشدك تفهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم للرغبات العاطفية، ومشاعر القلوب، فلم يكن موقفه لائمًا ولا مستنكرًا، ولكن مقررًا متعجبًا من فرط حب مغيث وشدة بغض بريرة رضي الله عنها، ويتبادل التعاجب مع عمه العباس رضي الله عنه من هذا التضاد العاطفي، فإن الغالب أن المحب لا يكون إلا محبوبًا، ولكن في هذه الحالة وجد أشد الحب في مواجهة أشد البغض.

إن هذا التفهم لأحوال القلوب وسطوة العواطف وهذه النظرة الواقعية للمشاعر النفسية جزء من وفاق الشرع مع الفطرة؛ فقد جاء الهدي النبوي بالتوسعة للفرح، والتنفيس للحزن، والفسحة للعواطف والمشاعر، فتعلن وتوجه وتهذب ولا تكبت ولا تصادر، وكان من أجلى صور الاعتراف بعاطفة الحب شفاعة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم للزوج العاشق إلى زوجته التي تركته.

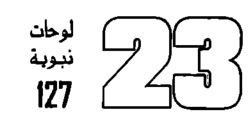


● 2 - قال العيني في عمدة القارئ عند شرح هذا الحديث: يستفاد منه أنه لا حرج على مسلم في هوى امرأة مسلمة وحبه لها ظهر هذا أو خفي، لا إثم عليه في ذلك وإن أفرط ما لم يأت محرمًا ولم يغش إثمًا.ا.هـ

● 3 - اتساع رعاية النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأمور الناس وتعاهده لهم؛ بحيث يدخل صلى الله عليه وآله وسلم في شفاعة في أمر زواج بين عبد مملوك، وأمة حديثة عهد بحرية، واتضحت هذه الرعاية لأصحابه كلهم حتى إن عبدًا مملوكًا يرى أن له حقًّا في جاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيطلب منه هذه الشفاعة فيجيبه النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى مسألته، ويسعى في حاجته فإذا كانت هذه الحاجات العاطفية الخاصة محل رعايته واهتمامه صلى الله عليه وآله وسلم فما ظنك بما هو أهم وأعم.

● 4 - استقلال شخصية بريرة رضي الله عنها، وقدرتها على اتخاذ القرار وامتلاكها الكامل والعاقل لقرارها ومصيرها؛ بحيث أدارت الحوار مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وانتهت إلى قرارها بوضوح.

لقد كان تساؤلها أمام شفاعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أهي أمر شرعي واجب الطاعة أم شفاعة ورغبة في الإصلاح؟ فلما علمت أنها شفاعة أعلنت رأيها الرافض لبقاء العلاقة مع زوج لا تحبه، وإن كان الشافع هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنك تدهش عجبًا لقدرة امرأة خرجت للتو من رق العبودية على امتلاك حقها، وإعلان رأيها وبين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن يزول عجبك إذا علمت أنها نشأت في البيئة النبوية



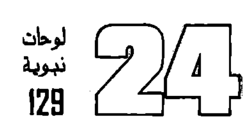
والمدرسة المحمدية التي تبني شخصية سوية متكاملة واثقة لا تقزم ولا تحجم، تؤدي واجباتها وتعرف حقوقها.



24

ضيافة أنصارية

جاء منهكًا ساغبًا على وجهه شحوب الجوع، وقترة الإعياء، فتوجه تلقاء والد المؤمنين ورسول رب العالمين الذي قال عنه ربه: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ وهو أب لهم؛ فلما وصل إليه قال بلسان حاله ومقاله: يا رسول الله أصابني الجهد، فأرسل رسول الله من فوره إلى إحدى نساءه يسألها هل عندها ما يطعم هذا الضيف المجهود، فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء. فأرسل إلى أخرى من نساءه فقالت مثل ذلك؛ حتى أرسل إليهن كلهن؛ فكان حالهن وجوابهن واحدًا: والذي بعثك بالحق ما عندنا إلا الماء. فأقبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أصحابه وقال: ((من يضيف هذا الليلة رحمه الله؟)). فقال أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه: أنا يا رسول الله. ثم انطلق إلى بيته فقال لامرأته: أكرمي ضيف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا تدخري عنه شيئًا. قالت: والله ما

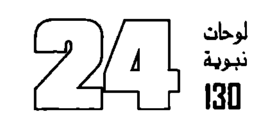


عندي إلا عشاء صبياننا. فقال: إذا أراد الصبية العشاء فعلليهم حتى يناموا؛ ثم أصلحي طعامك وأوقدي سراجك، فإذا جاء ضيفنا فقربي له ما عندك؛ فإذا أهوى ليأكل فقومي إلى السراج فأطفئيه. فنومت صبيانها، وأصلحت طعامها، وأوقدت سراجها، فلما جاء الضيف قدمت له طعامهم القليل ثم قامت إلى السراج كأنها تصلحه فأطفأته، ثم جلسا مع ضيفهما على الطعام، وجعل أبو طلحة يتلمظ وزوجه تتلمظ؛ حتى رأى الضيف أنهما يأكلان، فأكل بعد جوع طويل فأتى على طعامهم كله من حيث لا يشعر، أما هما فقد باتا طاويين على الجوع كما بات صبيانهما، فلما تنفس الصبح غدا أبو طلحة رضي الله عنه كعادته ليصلي مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم صلاة الفجر، فإذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي بشره برحمة الله يوم أخذ ضيفه يبشره ببشرى أخرى فيقول: ((لقد ضحك الله الليلة أو عجب من فعالكما بضيفكما)).

وكان من آثار هذا العجب الإلهي وحيًا أوحاه الله على نبيه في قرآن أنزله يتلى إلى يوم القيامة ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

وبعد، فمع هذه القصة وقفات:

● 1 - كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثابة للمؤمنين يثوبون إليه عند حاجتهم وكربهم؛ فهذا الجائع المجهود توجه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يطل العرض ولم يسهب في الشرح وإنما عرض حاجته ((يا رسول الله أصابني الجهد)). ليلقى التجاوب السريع والاهتمام التام بحاله؛ بحيث لم ينفصل عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا وقد قضيت حاجته وتدبر



أمره.

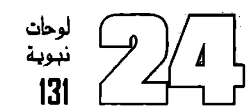
إنها الولاية النبوية القائمة على الرعاية والعناية والاهتمام وليس التسلط والتعاظم والأبهة، إنها الولاية التي أعلنها صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: ((أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، من ترك مالاً فلورثته، ومن ترك دينًا أو ضياعًا فإلي وعلي)).

● 2 - ترى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بدأ بنفسه في قضاء حاجة هذا المجهود؛ فأرسل إلى إحدى زوجاته يسألها طعامًا لضيفه، فلما لم يجد عندها أرسل إلى أخرى، حتى أرسل إلى بيوته كلهن، ولم يعرض على أصحابه إلا بعد أن استفرغ ما عنده صلى الله عليه وآله وسلم.

وهكذا كان صلى الله عليه وآله وسلم في أمره كله القدوة بفعله قبل قوله، وما كان يأمر بخير إلا وقد سبق إليه وتمثله غاية التمثل وقام به أتم القيام، ولذا حصلت المتابعة التامة من الصحابة رضوان الله عليهم في صور رائعة من التفاني في الاقتداء، وما مشهد أبي طلحة رضي الله عنه مع ضيفه إلا تجاوب مع حال القدوة العظمى صلى الله عليه وآله وسلم، ولقد كان ربه أعلم به يوم قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

إن هذا المعنى ينبغي أن يتجدد تذكره والوعي به في نفوسنا، وكل عالم وداعية ومرب ومعلم أحوج شيء إليه؛ لتقديم الرسالة بالقدوة والبداءة بالنفس في تمثل المبادئ، وفي الحكمة الغربية: (لا تخبرني عن نفسك، فما تقوله أفعالك يصم أذني).

● 3 - حال أبي طلحة -رضي الله عنه- مع ضيفه صورة ناصعة الوضاءة في



الإيثار بالقليل؛ فلقد آثر أن يبيت هو وزوجه وأطفاله طاوين ليلتهم ليطعم ضيفًا مجهودًا طوى ليالي جوعًا، ثم أعجب من تلطفه بمشاعر ضيفه الذي لم يكن ليسيغ هذا الطعام لو علم أنه يشبع ليجوع مضيفه فأطفأ السراج ثم ورى بمشهد تمثيلي للمضغ والتلمظ هو وزوجه؛ حتى يهنأ الضيف بهذا الطعام القليل ويأكله بنفس هانئة. إنه مشهد عجيب وهل أعظم من أن عجب منه ربنا عزوجل وأنزل فيه قرآنًا يتلى، فإذا عجبت وتتام بك العجب فتذكر أن هذه أثارة من مدرسة النبوة، وثمرة من ثمرات التربية المحمدية.

● 4 - المشهد الرائع للأسرة وهي تتفاعل مع الموقف وتوزع الأدوار وتتعاضد في إخراج الموقف على أتم صورة وأحسن حال، فالزوجة تغالب عواطف الأمومة لتجود بطعام صبيتها، وتؤثر على نفسها بطعامها، وتتقاسم مع زوجها إتمام المشهد وتبادل الأدوار في إيناس الضيف وإزالة حرجه من قلة الطعام، فكانت في شأنها كله عونا لزوجها على طاعة الله وإكرام ضيف رسول الله.

وإن هذا الاندماج والتناغم الأسري بين الزوجين في فعل القربات ما كان ليتم لو لا أن المرأة كانت مشتركة في القناعة وتحمل معاني الدين. ولذا كان تجاوبها تلقائيًا ولم يشب تفاعلها الإيجابي أي اعتراض مع أن نساء الأنصار كن ذوات استقلالية في الشخصية، ونفوذ في الحياة الزوجية.

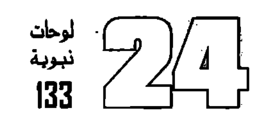
إن هذا يلفتنا إلى أهمية التكامل في تربية المجتمع وإعداد المرأة لتحمل مسؤوليتها بقناعة اقتناع وتفاعل إيجابي مع الرجل في رسالتهما المشتركة.

● 5 - في الحديث معجزة نبوية ظاهرة حيث ابتدأ النبي صلى الله عليه وآله وسلم أبا طلحة رضي الله عنه بإخباره بعجب الله من ضيفهما الذي تم في ظلمة الليل ولم يعلم به ضيفهما الذي يشاركهما، في آيات من آيات النبوة والمتعاقبة في حياة الصحابة ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.

● 6 - حال بيوتات النبي صلى الله عليه وآله وسلم من القلة وكفاف العيش بحيث يطوف عليها الطائف يسأل طعامًا لضيف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلا يجد فيها إلا الماء، وما ذاك إلا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد واسى الناس بنفسه وماله، ولم يجعل بيوته خزائن للترف، وجمع فضول المال والتكثر من متاع الدنيا، فتتعاقب الشهور ولا توقد في بيوته النار، ويراه أصحابه أكرم الناس وأجود بالخير من الريح المرسلة، ويقسم الإبل بالمئين، والمال حثوا في الثياب، ولكنهم لم يروه يومًا استأثر عليهم بمال أو تحول دونهم متاعًا، أو آثر نفسه أو ذوي قرباه.

● 7 - وفي إرسال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى بيوته كلها يسأل طعامًا لضيفه فلا يجد ما يقتاته ذو كبد رطبه مواساة لطيفه لهذا الرجل الجائع المجهود؛ فإذا رأى أن هذا حال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجع على نفسه بالرضا والسكينة وعدم الجزع لما هو فيه فهذا إمامه وقدوته وهذه حاله صلى الله عليه وآله وسلم.



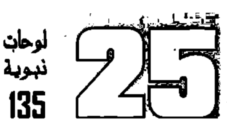


25

يا عَمْ

..... تفتح وعي النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو أقرب الناس إليه، فهو الأخ الشقيق لأبيه عبد الله وهو الذي كفله بعد وفاة جده عبد المطلب فحلّت الأبوة محل العمومة حتى صار النبي صلى الله عليه وآله وسلم يُدعى يتيم أبي طالب.

وكان الحب متبادلاً بينهما فكان أبو طالب من شدة تعلقه به إذا سافر سافر به معه، حتى إنه عندما سافر لتجارته في الشام أخذه معه وهو في التاسعة من عمره، وهي سنٌّ لا تؤهل للتجارة ولا لأعباء الطريق الشاقة، ولكنه تعلق أبي طالب بابنه ابن أخيه وتعلق النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعمه صنو أبيه، وعَبَرَ النبي صلى الله عليه وآله وسلم مراحل عمره المبارك الميمون وأبو طالب أقرب ذوي قرباه، حتى إذا تحمل أعباء الرسالة وواجه تبعات البلاغ كان من أبي طالب ما عُرف واشتهر من نصرته وحمايته والذب عنه ثم تحمّل المنابذة من قريش والحصار >



والتضييق من غير أن تلين له قناة أو تضعف عزيمة، وكان حاسماً في الحماية مستبسلاً في النصرة.

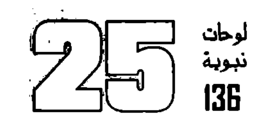
كذبتم وبيت الله نبزى محمد
ولمّا نقاتل دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرع حوله
ونذهل عن أبنائنا والحلائل

ومرّت عشر سنوات من عمر الرسالة، وخمسون سنة من العمر المحمدي وخمس وثمانون سنة من عمر أبي طالب، وإذا بأبي طالب يرقدُ على سرير الموت فيحضره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعند أبي طالب أخواله من بني مخزوم، أبو جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، والمسيب بن حزن، ويسارع النبي صلى الله عليه وآله وسلم اللحظات الأخيرة من حياة أبي طالب يناشده الكلمة التي طالما عرضها عليه وتطلبها منه، يقول له: بشفقة الولد للوالد: ((يا عم. إنك أعظم الناس علي حقًّا، وأحسنهم عندي يدًا، فقل كلمة تحل لي بها الشفاعة فيك يوم القيامة، يا عم. قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله)). ولكن أبا جهل يسارع إلى تطويق أبي طالب بحصار عاطفي يشده إلى دين أبيه قائلاً: أترغب عن ملة عبد المطلب؟

ويسابق النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنفاس أبي طالب مكرّرًا ذات الطلب من غير أن ينشغل بالرد على أبي جهل أو مناقشته مقبلاً على عمه: ((يا عم. قل لا إله إلا الله. كلمة أشهد لك بها عند الله)).

ويعيد أبو جهل ذات النداء والتذكير بدين عبد المطلب.

ويكرر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما بدأ، ويناشد عمه في هذه اللحظة



الحرجة كأشد ما تكون المناشدة، ويحس أبو طالب صدق اللهجة وحرارة العاطفة في نداء ابن أخيه. فيُقبل عليه قائلاً: يابن أخي لو لا أن تعيرني قريش يقولون ما حمله على ذلك إلا جزع الموت لأقررت بها عينك.

ثم كان آخر ما تكلّم به قبل أن تفرط آخر أنفاسه: أنا على ملة الأشياخ. أنا على ملّة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. ومات أبو طالب.

وغادر النبي صلى الله عليه وآله وسلم حزينًا أسفًا أن عمه الذي أحبه ونصره لم ينعم بالهداية التي بُعث بها ودعى إليها.

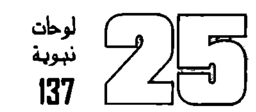
وقال وكأنه لازال يخاطب عمه وكأن عمه لا زال يسمعه: ((لأستغفرن لك ما لم أنه عنك)).

فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

وأنزل سلوة ومواساة لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

وبقيت في نفس النبي صلى الله عليه وآله وسلم حسرةٌ على عمه يعرفها منه أصحابه.

وبعد نحو عشر سنين يدخل النبي صلى الله عليه وآله وسلم مكة فاتحًا ويأتيه أهل مكة يبايعونه على الإسلام، ويأتي أبو بكر بأبيه أبي قحافة ليبايع النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيمدّ الشيخ إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدًا معروقة ناحلة، فيستعبر أبو بكر باكيًا وهو يرى يد أبيه في يد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويعجب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لبكاء صاحبه فيسأله: ((ما لك يا أبا بكر؟)).



فيقول: يا رسول الله لأن تكون يد عمك مكان يده ويسلم ويقر الله عينك أحب إلي من أن يكون أبي، والذي بعثك بالحق لأنا كنت أشد فرحًا بإسلام أبي طالب مني بإسلام أبي ألتمس بذلك قرة عينك.

ونحن اليوم تعتلج قلوبنا أسى ولوعة، ونتمنى أن أبا طالب شهد ذلك اليوم، ورأى ابن أخيه يدخل مكة فاتحًا، ورأى الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، وأن عين النبي صلى الله عليه وآله وسلم قرت بإسلامه، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

● 1 - لقد تساءلت في نفسي كثيرًا: من أولى الناس -بالنظر العقلي المجرد- أن يكون أول البشرية إسلامًا وتصديقًا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم فكان الجواب المتبادر: ذاك أبو طالب..

فهو أعلم الناس برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، عرف النبي صلى الله عليه وآله وسلم في طفولته وفتوته ويفاعه وشبابه ورجولته وكهولته، وعرف خلال ذلك خصاله كلها: صدقه وأمانته، وطهره ونقاءه، وعرف أحواله كلها: مدخله ومخرجه ومذهبه ومأتاه.

وقال عنه مفاخرًا:

لقد علموا أن ابننا لا مكذب
لدينا ولا يُعنى بقول البواطل

ومع ذلك لم تُجد فيه دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم المتواصلة طيلة عشر سنين، ومات والرسول صلى الله عليه وآله وسلم عند رأسه يناشده كلمة التوحيد فلم يقلها، ولو قالها لقرت بها عينه، وعين رسول الله صلى الله عليه وآله

وسلم وعين كل مسلم.

إن ذلك كله آية باهرة تدل على أن الهداية منحة إلهية ينعم الله بها على من يشاء والله بحكمته أعلم بمواضع هدايته، ولذلك أسلم أناسٌ بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يعرفوه إلا في ذلك المجلس.

إن تصور هذا المعنى يجعل المسلم يستشعر عظيم فضل الله عليه يوم هداه وقد ضلّ من خلقه كثير، وهذا ما يجعلنا نلظ على الله في كل ركعة من كل صلاة ((اهدنا الصراط المستقيم))، وأنه لو كانت الهداية بالعلم وحده لكان أبو طالب أولى الناس بها لأنه أعلمهم برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

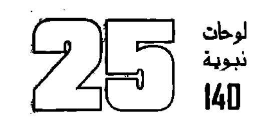
● 2 - في هذه النهاية سلوة لكل من بذل جهده في الدعوة وبادر في الحرص ولم يصل إلى مراده، فقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أعظم الناس حرصًا في دعوته عمه وأحكم طريقة، وأحسن موعظة، ومع ذلك لم يستجب له، وقد جهد قبل ذلك نوح مع ابنه وإبراهيم مع أبيه. ففي حال هؤلاء الأنبياء مع ذوي قرباهم عزاء لكل داعية جهد في إيصال الحق إلى من يحب فلم يصب الحق في قلوبهم مواضعه.

● 3 - لم يذكر الله أبا طالب في الآية باسمه، ولا بكنيته، ولا بوصفه، ولكن ذكره بعاطفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم تجاهه ((من أحببت))، وهذا الحب الذي ذكره الله عن نبيه تجاه عمه عاطفة فطرية نابعة عن قربى، ومبذولة لذي إحسان ومكرمة وقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها، ولقد كان النبي

صلى الله عليه وآله وسلم يحفظ لأبي طالب جميله، ويقدر له إحسانه، ويحبه حبًا فطريًا، ويحب هدايته محبة شرعية.
إن المحبة الفطرية لذوي القربى وذوي الإحسان والمروءة -وإن كانوا غير مسلمين- مما جُبلت عليه الفطر السوية وسبقت إليه العاطفة النبوية.

● 4 - نرى أن أبا جهل قد استعمل حصارًا عاطفيًا على أبي طالب في هذه اللحظة الحرجة من حياته، إنه لم يعارض دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بحجة، ولم يؤيد ما يدعوا إليه ببرهان ولم يحتج على أبي طالب إلا أن هذه الوثنية هي دين عبد المطلب، وهذا منطق خال من البرهان والحجة، ولكنه يطوق أبا طالب بالحصار العاطفي الذي يذكره دين أبيه، ويشعره بالعقوق لآبائه وأشياخه لو قد تخلى عن دينهم، وهو أسلوب ماكر يحسنه أبو جهل ويوظفه في مواطن كثيرة.
وأنت واجد أسلوب أبي جهل هذا في حوارات كثير من أتباعه عندما يجرونها بطريقة حروب العصابات، فليس لها قواعد تنطلق منها، ولا أرضية تقف عليها.
بقي أن تعلم أن هؤلاء الثلاثة الذين كانوا عند أبي طالب يؤزونه على الكفر قد أسلم منهم اثنان وتبعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتركا ملة عبد المطلب وهما عبد الله بن أبي أمية الذي استشهد يوم حنين، والمسيب بن حزن.

● 5 - تقف معجبًا أمام هذه السكينة النفسية والرفق المحمدي في هذه الساعة الحرجة من حياة عمه أبي طالب، وهو يعرض عليه الهداية ثم يتعرض لهذا الاستفزاز الشديد من أبي جهل الذي يدخل مشاغبًا عليه دعوته ومعاكسًا

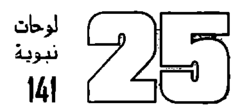


مقصده ومع ذلك لم ينشغل النبي صلى الله عليه وآله وسلم معه بلجاجة، ولم ينقل أنه رد عليه بكلمة، وربما كان ذلك مقصدًا لأبي جهل ليشاغل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صمد إلى هدفه وألح على طلبه بذات الرفق حتى نفذ قضاء الله وقدره، ثم استمرت سكينة النبي صلى الله عليه وآله وسلم برغم الأسف والحزن الممض، ولم يعقب على ذلك إلا بقوله: ((لأستغفرن لك ما لم أنه عنك)). ولم يرجع إلى أبي جهل قولاً ولم يجعله له شغلاً.

إن هذه السكينة المحمدية في هذا الموقف الاستفزازي الحرج درس بليغ في عدم إهدار الوقت والجهد فيما لا يجدي، وعدم الاستدراج في مشاغلات جانبية تقطع عن المقصد الأعظم.

كما هي مشهد من مشاهد العظمة الأخلاقية المحمدية ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

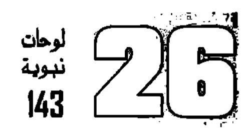




26

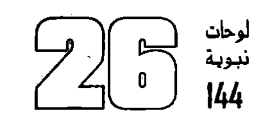
عصابة الملك

ها هي أوائل سني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة النبوية، وها هو صلى الله عليه وآله وسلم على هديه وسنته في تعاهد أصحابه ورعايتهم يتوجه راكباً على حمار مردفاً حِبَّه أسامة بن زيد رضي الله عنهما إلى منازل بني الحارث ليعود صاحبه سعد بن عبادة سيد الخزرج رضي الله عنه في داره، فمر في طريقه بمجلس قد اجتمع فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، وفيهم عبدالله بن أبي بن سلول قبل أن يظهر إسلامه وعبد الله بن رواحة رضي الله عنه، فعدل مسيره إليهم فلما دنا منهم ثار غبار الحمار، وهو أمر معتاد في أرض المدينة التي كانت سباخاً يثور غبارها لوقع الأقدام وحوافر الدواب، فبادر عبد الله بن أبي سلول وغطى أنفه وقال: لا تغبروا علينا. ثم قال: والله لقد آذاني ريح حمارك. وكان تصرفاً جافياً إذ بدل أن يقوم له ويتلقاه ويرحب به <



كما هي عادة العرب مسلمهم ومشركهم في تلقي القادم وإكرامه، قابل ذلك بالتكره والإعراض، ولكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تجاوز هذا الموقف ولم يجعله مجال مراجعة، وإنما بادر بالسلام وإلقاء التحية، ثم نزل وجلس إليهم ودعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن، فما كان من عبد الله بن أبي الذي سمع آيات القرآن ودعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلم يمكنه أن يشكك في وضوح برهانها ولا أن يجادل في صحة حقائقها، ولكنه سلك طريقة أخرى في المشاغبة فقال: يا أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقاً فلا تؤذنا به في مجلسنا، ارجع إلى منزلك فمن جاءك فاقصص عليه.

وكان أسلوباً فيه دس خبيث، وتشكيك في صدق الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم ولذا غضب عبد الله بن رواحة رضي الله عنه لهذه المخاطبة السيئة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأقبل على رسول الله قائلاً: بلى يا رسول الله فاغشنا به في مجالسنا فإنا نحب ذلك. وقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أطيب ريحاً منك. وتراجعوا في الكلام حتى استب المسلمون والمشركون واليهود وتثاوروا وكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي، والنعال فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخفظهم ويسكنهم حتى سكتوا وهدأت ثائرتهم، ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حماره وسار حتى دخل على سعد بن عبادة رضي الله عنه فحدثه بما جرى ؛ لأنه من سادات الخزرج كما كان عبد الله بن أبي من ساداتهم وقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «يا سعد ألم تسمع ما قال أبو حباب -يعني عبد الله بن أبي- قال كذا وكذا». فقال سعد بن عبادة: يا رسول الله اعف عنه واصفح فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك ولقد اصطلح



أهل هذه البلدة على أن يتوجوه فيعصبونه بالعصابة، ولقد جاءنا الله بك وإننا لننظم له الخرز لنتوجه، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك شرق بذلك، فذلك فعل به ما رأيت. فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتجاوز هذا الموقف، حتى إذا كانت غزوة بدر وأظهر الله رسوله وقتل صناديد الشرك الذين كان عبد الله بن أبي يظن أنه سيتظاهر بهم ويتقوى بعداوتهم علم أن هذا أمر لا قبل له به فقال لمن معه من المشركين: هذا أمر قد توجه، فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الإسلام وأظهروا الدخول فيه، وإن كانت قلوبهم لاتزال مترعة بأحقادها مشربة بأمراضها.

● 1 - يشدك في هذا المشهد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مر على مجلس مختلط فيه المسلمون والمشركون واليهود ومع ذلك لم ينكر على المسلمين جلوسهم في هذا المجلس ولا خلطتهم لأولئك المشركين واليهود، بل وبعد أن جرى في المجلس ما جرى ومضى النبي صلى الله عليه وآله وسلم عنهم لم يأمر المسلمين بمفارقتهم بل تركهم على حالهم وفي مجلسهم ليتضح من ذلك أن الخلطة والمعايشة هي الأصل في العلاقات الإنسانية، وأن المسلم على ثقة من دينه ويقين راسخ بما يعتقده ولا يضيره أن يجالس المخالفين أو يخالطهم فهو أقدر على التأثير عليهم منهم على التأثير عليه.

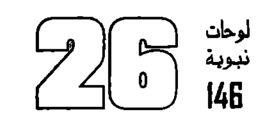
وكان الانعزال والانغلاق هو شأن المشركين لقلة ثقتهم بما هم عليه وضعف حجتهم عند المحاجة والجدال فكان شعارهم الانعزالي ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ وشعار عبد الله بن أبي: ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه.

لقد كان يخشون تأثير الاستماع إذا استمعوا وتأثير المخالطة إذا خالطوا ولذا طوقوا أنفسهم بأطواق الانغلاق والمباعدة في حين كان الصحابة على حداثة عهدهم بالإسلام أكثر انفتاحاً ولياقة على المخالطة والتعايش، لينتشر دينهم من خلال هذه المخالطة وتتسع مساحة دعوتهم ولتتحطم أطواق العزلة التي كان المشركون يحتمون بها.

ثم أتى علينا زمان صار بعضنا يقابل الانفتاح العالمي بمزيد من الانغلاق، ويتعامل مع دينه ويقينه وكأنه لوح من زجاج قابل للكسر عند أي شبهة.

● 2 - يشدك هذا السمو الأخلاقي في تعامل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فحين خاطبه ابن أبي بقوله: يا أيها المرء. ذكره النبي صلى الله عليه وآله وسلم في غيبته بكنيته فقال: «ألم تسمع ما قال أبو حباب؟». وحين تثاور المسلمون والمشركون من أجله صلى الله عليه وآله وسلم لم ينـزل النبي طرفاً في المشاجرة ولكن تسامى فوقها، وجعل يخفضهم حتى سكنوا، وبهذا السمو الأخلاقي احتوى هذه الإثارات التي كان ابن أبي والموتورون معه يحاولون إثارتها، بل إن هذه الطريقة السامية في التعامل جعلت جميع مكائدهم التي كادوها تنطفي ولا تحقق ما كانوا يؤملونه من تداعيات تخريبية.

● 3 - كان تشخيص سعد بن عبادة رضي الله عنه لحال عبد الله بن أبي غاية في الدقة والدراية، فالقضية عنده ليست مخالفة في الرأي أو عدم قناعة بالحجة ولكنه الحسد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن ما جاء به من حق قد سلبه زعامة كان يتشوف إليها، حتى إذا ظفر بها أو كاد غلب حق النبوة



والوحي على الزعامة القبلية التي كان يطمح إليها، فشرق بالرسول والرسالة وجهد في مناوئتها ما استطاع حتى إذا رأى أن الأمر قد توجه غير طريقته إلى الكيد من داخل الصف ليبدأ المسلمون المواجهة مع نوع آخر من العداوة، مع النفاق والمنافقين.

إن أشد العداوات التي واجهها النبي صلى الله عليه وآله وسلم كانت جرثومة الحسد هي المحرك الحقيقي لها، وهذا ما يتضح جلياً عند تشريح عداوة أبي جهل وحيي بن أخطب، كما هو شأن أستاذهم إبليس يوم قال: أنا خير منه.

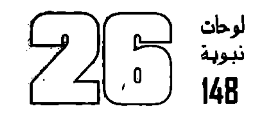
ومثل هذه العداوات قلما ينـزع أصحابها عنها وإنما يحملون أحقادهم إلى قبورهم.

● 4 - ولذا استمر مسلسل المكائد والدس الخفي، فقد تظاهر بالإسلام في السنة الثانية، وفي السنة الثالثة قام بحركة كائدة وفي وقت حرج حيث انسحب بثلث الجيش بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبيل معركة أحد ليحدث الوهن في نفوس المسلمين وليطمع فيهم عدوهم، وفي السنة الرابعة قال كلمته: ﴿لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا﴾، وقال: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾، ثم تولى كبر الإفك بحق أمنا عائشة رضي الله عنها، وفي السنة الخامسة تولى والمنافقون معه الحرب النفسية داخل الصف في شدة المواجهة مع الأحزاب ليقولوا: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم احتوى كل هذه المكائد وأطفأ تداعياتها بحلمه وصفحه دفعاً للمفسدة واستصلاحاً لقلوب أصحابه، ويشاء

الله أن يزيد غم ابن سلول غماً وكربه كرباً ويعجل له بعض عقوبته في الدنيا فيمد في عمره حتى رأى نصر الله والفتح، ورأى الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، ورأى وفود العرب تزدحم في المدينة مبايعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متبعة دينه، ورأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان يحسده أن يلي أمر المدينة يلي أمر العرب قاطبة ويراه وإنه ليخافه ملك بني الأصفر، فمات وهو أشد ما يكون غماً وكرباً.

● 5 - واستمر عفو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن عبد الله بن أبي سلول بعد موته، فعندما توفي جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: يا رسول الله أعطني قميصك أكفنه فيه. فأعطاه قميصه، ثم قال: ((آذني أصلي عليه)). فكفن في القميص النبوي، ثم حضره النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل أن يدفن، فلما قام ليصلي عليه وثب إليه عمر رضي الله عنه وأخذ بثوبه وقال: يا رسول الله أتصلي على ابن أبي وقد قال يوم كذا كذا وكذا ويوم كذا كذا وكذا. يعدد عليه مقالات ابن أبي، فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مبتسماً وقال: ((أخر عني يا عمر))، فأكثر عليه عمر وجعل يناشده ويقول: تصلي عليه وقد نهاك الله أن تستغفر لهم، فقال: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((إنما خيرني الله، فقال: استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم. وسأزيده على السبعين)). ثم صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأطال الصلاة حتى قال مجمع بن حارثة: ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أطال على جنازة قط ما أطال على جنازة عبد الله بن أبي من الوقوف. فلما



قضى صلاته وحملت جنازته ودلي في حفرته أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم برفعه منها فوضعه على ركبته وكشف عن وجهه ثم بصق من ريقته المباركة في فمه ليكون آخر ما أخذ من الدنيا ريقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

● 6 - لقد كانت واحدة من أقوال عبد الله بن أبي كافية ليقتل بسببها، ولو لم يكن إلا تواطؤه مع أعداء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم المحاربين له كيهود بني النضير الذين أرسل وهم في حال حرب والرسول يحاصر حصونهم يقول لهم: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾.

إن هذا يعتبر في كل الأعراف العالمية خيانة عظمى، فكيف إذا أضفت إليها مثل قوله: ﴿لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا﴾، وقوله: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾، ويعني بالأذل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ومع ذلك كف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنه، وكف عنه من أراد قتله من أصحابه ومنهم عمر بن الخطاب الذي قال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((دعه)) وذلك مراعاة لمصالح عظمى منها:

1 - أن خبر قتله سينتشر ولن ينتشر معه المسبب الحقيقي وسيفسر تفسيرات خاطئة تكون صدوداً للناس عن دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولذا قال: ((لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه))، ((لا يتحدث الناس أن محمد قاتل بأصحابه ثم قتلهم))، ((لا يتحدث الناس أني قد وقعت على أصحابي أقتلهم صبراً)).



2 – مراعاة مشاعر أصحابه من الأنصار الذين كان عبد الله بن أبي يمثل زعامة عشائرية لهم، فالدخول معه في مواجهة سيغضب جماعات منهم ويسوء آخرين ويحدث فتنة، ولذا كان من ثمرة صفح النبي صلى الله عليه وآله وسلم عنه أن قومه صاروا هم الذين ينكرون عليه فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعمر: ((كيف ترى؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي: اقتله. لأرعدت له أنوف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته))؛ أي أن الذين كانوا يغضبون له صاروا يغضبون منه وينكرون عليه.

وفي ذلك تأسيس لمراعاة المصالح ودرء المفاسد، ورعاية الائتلاف ودفع الفتنة والاختلاف.



27

ذاك الفتى

لم تمنعه حداثة سنه وهو الفتى الشاب، ولا مهابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو الذي أُلقيت عليه المهابة أن يقصد إليه يسأله الإذن بما يخفف معاناته من استعار الشهوة وعنفوان الشباب، فها هو يأتي رسولَ الله وأصحابُه حوله فيقوم وجاهه ويقصده بسؤاله قائلاً: يارسول الله ائذن لي في الزنا. وكان سؤالاً صاعقة استلفت إليه من كان حول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فصاحوا به: مه مه، إذ كيف يُستأذن بالزنا من نزل عليه تحريمه، وكيف يأذن بالفاحشة من جاء لتطهير البشرية منها؟

فاقبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليهم وقال لهم: ((دعوه، أَقروه)). (أي اتركوه يستفسر ولا تفزعوه)، ثم أقبل عليه فقال: ((أُدن)). فدنا الشاب حتى جلس بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له بأبوة المعلم، وبصيرة الداعية، وبراعة المحاور: ((أتحب أن يفْعل أحد ذلك

بأمك؟)). فقال الشاب: لا والله يارسول الله جعلني الله فداءك، قال: ((فكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم، أفتحب أن يفعل أحد ذلك بابنتك؟)). قال: ((لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك، قال: ((ولا الناس يحبونه لبناتهم، أفتحب أن يفعل أحد ذلك بأختك؟)). قال: لا والله يارسول الله جعلني الله فداءك، قال: ((فكذلك الناس لا يحبونه لأخواتهم، أتحب أن يفعل أحد ذلك بعمتك؟)) قال: لا والله يارسول الله جعلني الله فداءك، قال: ((فكذلك الناس لا يحبونه لعماتهم، أتحب أن يفعل أحد ذلك بخالتك؟)) قال: لا والله يارسول الله جعلني الله فداءك، قال: ((فكذلك الناس لا يحبونه لخالاتهم، فاكره ما كره الله، وأحب للناس ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك)). وعرف الفتى أن ما حدث به لنفسه خطيئة تلوث القلب: فقال: يا رسول الله، ادعُ الله أن يطهر قلبي، فوضع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يده على صدره ثم قال:((اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه وحصّن فرجه)). ومضى الشاب ورمق الناس حاله، قالوا: فلم يكن ذاك الفتى يلتفت إلى شيء من ذلك بعد.

● 1 - يلفت نظرك قصد هذا الفتى حديث السن إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من غير توجّس، ولا تردّد ليفضي إليه بحاجة نفسه على خصوصية هذا الأمر وحساسيته، وما كان هذا ليتم لولا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم صنع نوعاً فريداً من العلاقة بينه وبين أصحابه، إنها علاقة تحطم الفروق بين الأجيال والطبقات والأجناس والمناطق، فيجعلهم كلهم في حالة انجذاب إليه، فالصبية الصغيرة تلعب بخاتم النبوة بين كتفيه، والمرأة تقف له فتأخذ بيده إلى حيث شاءت، والأعرابي يقف بين يديه فيقول: إني سائلك فمشدّد

عليك، وهذا الشاب لم تمنعه مكانة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا مهابته، ولا فارق السن بينه وبينه أن يسأله بوضوح عما يعتلج في نفسه، وهو في غاية الطمأنينة والأمان. إن هذه القدرة على احتواء المجتمع واجتذاب كل فئاته أحد معالم الخلق النبوي العظيم، والذي لابد أن يتقفاه من اختار لنفسه وراثة النبوة وتحمل مسؤولية الدعوة.

● 2 - يلفت نظرك إدارة النبي صلى الله عليه وآله وسلم للحوار، واستثارته التفكير، وسلوكه أسلوب الإقناع، وتحميل العقل مسؤولية التبعية والتكليف، لقد كان يمكن للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لذلك الشاب: لا أجد لك رخصة، وما نحسبه لو قيل له ذلك إلاّ سيرضى ويسلم، ولكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لفت ذهن الشاب إلى جوانب أخرى في قضية المتعة المحرمة لم يكن قد وجه إليها نظره العقلي، وكان ذلك كافياً في تصوّر بشاعة هذا الفعل وعظيم ضرره، لينتهي به الأمر إلى قناعة عقلية كما هو متابعة وتسليم، وهذا ما يجعل الداعية يتحمل مسؤولية الإقناع بالدعوة، وحمل الناس على مشاركته القناعة فيما يدعو إليه، ولو كان أحد يسعه الاستغناء عن ذلك لكان رسول الله، ومع ذلك كان هديه وسنته استنفار العقل، واستثارة التفكير، والوصول بالناس من خلال التفكير السليم إلى القناعات الصحيحة، وبذلك خلص البشرية من أغلالها الفكرية لتتجه إلى رشدها، ورحم الله الأستاذ العقاد يوم أطلق (التفكير فريضة إسلامية).

● 3 - يلفت نظرك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قدم الحجة المقنعة في

وعاء عاطفي جميل، أشعر هذا الشاب بخصوصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبأبوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم له، وبأن ما يأمر به هو النصح والشفقة والمحبة، وذلك يتجلى في نهي الصحابة عن الإنكار عليه، وقوله لهم:((دعوه أقروه)). ثم تقريبه له قائلاً: ((أدنُ)).حتى جلس بين يديه بحيث كان في متناول يده، وهذا هو المجال العاطفي للجسد، ثم سرعة استجابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالدعاء له بأكثر مما سأل، ووضعه صلى الله عليه وآله وسلم يده الشريفة على صدره، ولكأني بهذا الشاب، وقد أفضى صلى الله عليه وآله وسلم بيده المباركة إلى صدره لَيَجِد بردها في قلبه، وأنه عاش عمره كله يتذكر بنشوة تلك اللمسة النبوية، يجد أثرها على صدره وفي وجدانه كأنما رفع صلى الله عليه وآله وسلم يده عنه الساعة.

لقد كانت تلك اللمسات العاطفية مفاتيح نبوية يفتح بها أغاليق القلوب، فهنيئاً لذلك الفتى وقرة عين له قربه من رسول الله ومسحه على صدره ودعاؤه له، وبورك سؤاله الذي أثمر له ذلك كله، أما نحن فهل نتعلم من ذلك أن الدعوة حب، والتعليم حب، والحياة حب،وأننا لن نوصل رسالتنا للناس ما لم نصل إلى قلوبهم بالحب.

● 4 - يلفت نظرك مراعاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حواره مع الفتى البيئة التي هو منها وأثرها في تكوينه النفسي، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم يخاطب شاباً عربيّاً من أمة عُرفت بحرارة الغيرة،حتى إنهم ليدفنون البنت في طفولتها خشية العار، وما عُيّر أحدهم بأشد من أن يُغمز منه عرضه، ولذا فإنه صلى الله عليه وآله وسلم لما جعله يتصور ما سأل في أحد حرماته استثار

فيه لظى هذه الحمية، وكأنا بهذا الشاب وهو بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستمع وإن جبينه ليتفصد عرقاً، وإنه ليجد مثل حر النار تحت جلدة وجهه وهو يتصور في ذهنه هذا التساؤل، ولذا جاء جوابه سريعاً: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك.

وكأنا بك لو سألت هذا السؤال لمن يعيشون في مجتمعات الإباحية الجنسية لأجابك بهدوء تام بعد أن يرخي كتفيه: هي حرة تلك علاقة تخصها.

إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يراعي في تعليمه ودعوته بيئة المتعلم وخلفيته التكوينية، وبذلك يصل من أقرب الطرق إلى عقله وقلبه.

ومثل ذلك قوله للأعرابي الذي أراد أن ينفي ولده لأنه أسود البشرة: ((ألك إبل؟)). قال: نعم يا رسول الله، قال: ((ما ألوانها؟)). قال: حمر، قال: ((هل فيها من أورق؟)). قال: إن فيها لورقاً، قال:((فمن أين ذلك؟)). قال: لعله نزعة عرق، قال: ((فذلك كذلك)). فحلّ الالتباس في ذهنه ونزع عما كان عزم عليه.

إن مثل هذه الأسئلة ما كانت لتؤثر في هذه القناعة إلاّ لأنها وُجّهت إلى أعرابي يربي إبله، ويعرف نسلها ومجاري أنسابها.

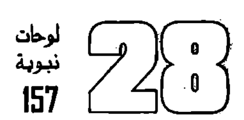
وبذلك نرى براعة نبوية في مراعاة البيئة وحسن توظيفها في الدعوة والإقناع.



28

بين أُحد واليرموك

.. لو أراد الخيال أن ينسج قصة غريبة عاجبة ما نسج أغرب منها وأعجب، ولكن الواقع كان أوسع مدى من الخيال، يبدأ طرفها الأول عند سفوح جبل أحد سنة ثلاث من الهجرة، حيث جيش المشركين يتحفز للقاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين معه، وكان القائد الأعلى لجيش المشركين أبو سفيان صخر بن حرب يعد جيشه مستخدمًا أعلى معايير الاقتدار السياسي والعسكري والنفسي، ولذا اختار معه في القيادة شبابًا يمتازون بالمهارة القتالية، وشدة العداوة للرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأنهم أبناء زعماء المواجهة والعداوة الأولى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فهم معرقون في العداوة والحنق تشرّبوه من آبائهم، ومضوا فيه على إثرهم؛ فجعل قيادة ميمنة الجيش لخالد بن الوليد بن المغيرة، وجعل قيادة ميسرة الجيش لعكرمة بن أبي جهل بن هشام، وكان >

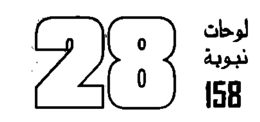


هؤلاء القادة الثلاثة يحملون أحقادًا عميقة وثأرًا قريبًا؛ فأبو سفيان قُتل ابنه حنظلة قبل عام في بدر، وعكرمة قُتل أبوه أبو جهل أيضًا في بدر، وخالد قُتل عمه والد عكرمة هناك.

وابتدأت المعركة وكان النصر في بدايتها للمسلمين استغل خالد ببراعة عسكرية عالية الثغرة التي انكشفت في جيش المسلمين، فتغير مسار المعركة ووقع القتل في جيش المسلمين حتى قُتل منهم سبعون من خيار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومُثّل بأجسادهم بعد قتلهم، منهم حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصنو أبيه وأحب الناس إليه، ووصل المشركون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهُشّمت البيضة على رأسه، وكُسرت سنه الرباعية، وجُرحت شفته السفلى، وغاصت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، وشُجّ وجهه، فجعل الدم يسيل على وجهه الشريف المبارك.

وأسرع أبو سفيان بتثبيت هذا النصر المختطف وإعلان الظفر والتشفي قائلاً: أعلُ هبل، يوم بيوم بدر والحرب سجال، ثم أسرع الانسحاب من ميدان المعركة ليحافظ على هذا النصر الخاطف.

وأما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجعل يمسح الدم عن وجهه وهو يقول: «كيف يفلح قوم شجّوا نبيهم وكسروا رباعيّته، وأدموا وجهه وهو يدعوهم إلى ربهم، اشتد غضب الله على قوم كلموا وجه رسول الله». ثم سكت ساعة ثم قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». ثم تنزل الوحي من الله على نبيه يجيب عن هذا التساؤل ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾.



ثم أغفى الزمن إغفاءة مرت فيها عشر سنين جاء فيها نصر الله والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، ثم لحق صلى الله عليه وآله وسلم بالرفيق الأعلى لنصل إلى طرف القصة الآخر في تخوم اليرموك سنة ثلاث عشرة من الهجرة حيث زحوف المسلمين تقابل جيوش الروم في المعركة الفاصلة التي ستحسم مصير الروم في بلاد الشام.

فإن سألت عن القائد الأعلى لكراديس جيوش المسلمين فهو خالد بن الوليد بن المغيرة، وإن سألت عن قائد فرقة الموت فعكرمة بن أبي جهل بن هشام، وإن سألت عن قائد التوجيه المعنوي فأبو سفيان صخر بن حرب. يا لله العجب!! إنهم هم القادة الثلاثة لجيش المشركين في أحد، فإن سألت عن خبرهم، فأما عكرمة بن أبي جهل فقد كان ينادي: من يبايعني على الموت؟ حتى اجتمع عليه نحو من أربعمائة كلهم يطلب الموت في هذه المعركة الفاصلة لتنتهي المعركة وعكرمة أحد شهدائها، وأما أبو سفيان صخر بن حرب فقد كان تحت راية ولده يزيد يحمل أعوامه الثمانين، ويشرف على الجيش بعين واحدة فإن عينه الأخرى قد أُصيبت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الطائف، وهو يصيح يحرّض الناس على الجهاد والثبات وينادي المسلمين: الله الله إنكم أنصار الإسلام ودارة العرب، وهؤلاء أنصار الشرك ودارة الروم، اللهم هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل نصرك، يا نصر الله اقترب. ولك أن تتخيل أثر هذه النداءات في نفوس جيش المسلمين وهم يرون شيخ قريش يتحامل على أعوامه الثمانين، ويناديهم هذا النداء، ويستصرخهم ويستجيشهم لتنتهي المعركة بنصر حاسم وفتح مبين يحوزه للمسلمين قائد جيشهم خالد ابن الوليد بن المغيرة.

●●● وبقي لعبرة الموقف وقفات:

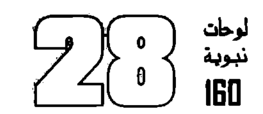
● 1 - إن هذا المشهد إذا جُمع طرفاه بين أحد واليرموك تبين كيف كانت النقلة مدهشة لهؤلاء الرهط الثلاثة أبو سفيان وخالد وعكرمة، فمن قيادة المشركين لحرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واستهداف الرسول والرسالة ومحاولة القضاء المبرم عليها، ثم في ومضة من عمر الزمن يتحول المشهد إليهم وهم يقاتلون باستماته واستبسال عن دين ذاك النبي، ويقودون الجموع رسلاً لرسالته، ومبلغين لدعوته في معركة مهولة فاصلة، ليُقتل فيها عكرمة وتُفقأ العين الباقية لأبي سفيان ويُفتح على خالد.

كل ذلك وقد لحق النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالرفيق الأعلى فلا مجال ثمة لرجائه أو خوفه أو مراءاته، ولكنه التشبع العميق بدعوته والصدق مع رسالته، والنظر بعين اليقين إلى صدق موعوده، متجاوزين بذلك العداوة الموروثة عن آبائهم، والثارات المريرة في نفوسهم، وهم العرب أطلب الأمم للثأر، وأحفظهم للتّرات، وأصلبهم في مداومة العداوة. ثم يحدث هذا الانقلاب العظيم ليتحول قادة المعركة ضد رسول الله إلى قادة المعركة لدينه بعد وفاته.

لقد أُعيد بناء العقل، وتربية النفس، وتأسيس الإيمان، وتحديد الاتجاه، وتجلية الرؤية والرسالة والهدف.

وهذا إحدى النجاحات المبهرة في الدعوة المحمدية؛ حيث أُحييت نفوسٌ كانت مواتاً فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج.

● 2 - يأخذك هذا الأدب النبوي من رسول الله وهو في أشد حالات ألمه النفسي



والجسدي، يمسح الدم عن وجهه ويقول: كيف يفلح قوم شجّوا وجه نبيهم؟ إنه صلى الله عليه وآله وسلم لا يزيد على طرح تساؤل، فلم يحسم مصائرهم، ولم يتألَّ على الله ألاّ يرحمهم، ولم يستنزل قوارع العذاب بهم، ولكنه تساءل: هل سيفلح هؤلاء بعد أن فعلوا ذلك كله من قتل خيار المسلمين، والتمثيل بأجسادهم ثم الوصول إلى رسول الله لينالـه من الجراحات ما ناله وليتناثر دمه على وجهه المبارك؛ فكيف يفلح قوم هذا عملهم بنبي يدعوهم إلى الله. إن لحظة المصاب وشدة الألم النفسي والجسدي لم تكن لتقف عند حد التساؤل، ولكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان أعلم الخلق بالله وأخشاهم له، ولذا لزم عتبة الأدب مع ربه، ولم يزد على أن تساءل بلا حسم ولا جزم.

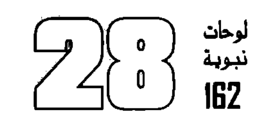
● 3 - إن هذا الاستبعاد في التساؤل النبوي:((كيف يفلح قوم شجّوا وجه نبيهم؟)). سيتحول إلى جزم قاطع في المقاييس البشرية، وسيقول كل من رأى المشهد: لن يفلح قوم شجوا وجه نبيهم، كيف وقد بلغوا في عداوة الرسول والرسالة أقصى مداها ومنتهى غايتها، وهل أعظم من الجهد في القتال ومحاولة الاستئصال؟ ومع ذلك ينزل وحي الله ليقصي عن نبيه وأفضل خلقه وأحبهم إليه مصائر الناس ومآلات حياتهم ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ وليكون أمر الفلاح النهائي والسعادة الأبدية مما تفرد الله بتدبيره وتقديره ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾، ويبقى منتهى القضية إلى علم الله وتدبيره ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ وكأني بفقهاء الصحابة يستشفون من هذه الآية بشائر توبة الله عليهم، وطلائع هدايته لهم، حيث بدأ الله بذكر التوبة قبل العذاب، ويتساءلون كيف ومتى سيكون ذلك وهذا حالهم، لكن لطف الله في تدبيره فوق نظر البشر



وتقديرهم ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

● 4 - برغم شدة حالة الألم النفسي والجسدي التي كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعانيها من مصابه في أصحابه وقتلهم والتمثيل بهم بين يديه وجراحات جسده ونزيف الدماء على وجهه وكلمات الشماتة والتشفي التي يسمعها مع هذا كله إلا أنه استنزل رحمة الله واستدفع غضبه «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». وإذا تأمل الفطن هذا الدعاء فيمثل هذه تلك الحال علم معنى قوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ فإنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يدع عليهم فينصر، ولم يقتصر على العفو عنهم حتى دعا لهم، ولم يقتصر على الدعاء لهم حتى جعل لهم جهلهم بحاله كالعذر وإن لم يكن عذرًا، وهذا غاية الفضل والكرم التي لا تشارك فيها ولا يوصل إليها.

● 5 - مع أنه صلى الله عليه وآله وسلم بالمكانة الأعلى عند ربه جل وعز وكان يقوم بأشرف وأفضل مهمة تجاه قومه ومع ذلك لما قُصد بهذه النكاية الشديدة ما زاد على هذا التساؤل «كيف يفلح قوم شجو وجه نبيهم» من غير حسم لمصائرهم ولا تألٍّ على الله في حالهم، وهذا درس نبوي عظيم في التواضع وعدم النظر على الذات يحتاجه كثيرًا من استغرقوا في النظر إلى أنفسهم وملاحظة أعمالهم فينظرون إلى أنفسهم بعين استحقاق الكرامات وأن لهم من المكانة عند الله، بحيث ينتقم لهم ممن تنقصهم في الحال، وأن يؤخذ من أساء الأدب عليهم من غير إمهال.



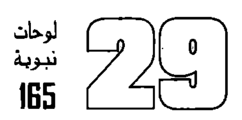
● 6 - درس لنا آخر وهو ألا نيأس في دعوتنا من أحد ولا نستبعد تغير حاله وصلاحها، فمن كان ينظر إلى حال هؤلاء الثلاثة في أحد لا يمكن أن يتصور - مهما بلغ تفاؤله- ما انتهى إليه حالهم بعد ذلك، ولذا فلا يصح احتباس الناس رهائن في اللحظة الحاضرة ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وهذا يفتح للنفس آفاق التفاؤل ويمدها بالرفق والسكينة في الدعوة.



29

من معونة إلى مؤتة

قدم أبو براء عامر بن مالك رأس بني عامر - والمعروف بملاعب الأسنة - المدينة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فعرض عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم الإسلام ودعاه إليه فلم يسلم ولم يبعد، وقال: يا محمد لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد رجوت أن يستجيبوا لك. فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((إني أخاف عليهم أهل نجد)). فقال أبو براء: أنا جار لهم. فأرسل النبي صلى الله عليه وآله وسلم سبعين من خيرة أصحابه يقال لهم القراء، وكانوا يحتطبون بالنهار ويبيعونه ويشترون بثمنه الطعام لأهل الصفة، وبالليل يتدارسون القرآن ثم يقومون إلى السواري للصلاة فأمر عليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم المنذر بن عمرو الساعدي وكان منهم عروة بن أسماء وحرام بن ملحان وعامر بن فهيرة، وسار هذا الركب الكريم إلى وجهتهم قبل نجد، حيث



ديار بني عامر فمروا في طريقهم بمكان يقال له بئر معونة وهي أرض بني عامر وبني سليم، وقصدوا إلى عامر بن الطفيل وهو ابن أخي عامر بن مالك ليدعوه بدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فغدر بهم واستصرخ عليهم قومه بني عامر فأبوا وقالوا: لا تخفَر ذمة أبي براء، فاستصرخِ عليهم جيرانه بني سليم فأطاعوه وقاتلوهم فقتلوهم جميعاً فقد كانوا رسلاً ولم يكونوا جيش قتال، وأخبر الله نبيه بخبرهم على لسان جبريل في تلك الليلة، وحزن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليهم حزناً شديداً حتى قال أنس رضي الله عنه: ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجد على أحد ما وجد على أصحاب بئر معونة، وجعل يدعو في صلاة الفجر بعد الركوع شهراً على من قتلهم حتى أنزل الله خبرهم وحياً يوحى على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم يبين حالهم عند ربهم: ((بلغوا قومنا فقد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه)).

وتأثر الصحابة لمصابهم في هذه الكوكبة الخيرة وكان من ذلك أن الزبير بن العوام رضي الله عنه سمى بنيه عروة والمنذر بعروة بن أسماء والمنذر بن عمرو من شهداء بئر معونة.

ومرت بعد ذلك أربع سنين تغيرت فيها حال المسلمين السياسية والعسكرية فقد عقد صلى الله عليه وآله وسلم صلح الحديبية وأمن الناس وفشا الإسلام وكثر المسلمون وإذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يرسل في السنة الثامنة بكتاب إلى عظيم بصرى مع الحارث بن عمير الأزدي فعرض له أمير البلقاء من قبل قيصر فشد وثائقه ثم قدمه فضرب عنقه فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جهز جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل وأنفذه إلى الشام ودارت معركة مهولة بين جيش المسلمين هذا وجيش الروم الذي كان عداده

مئتا ألف مقاتل وقد قتل من الروم عدد غفير لا يعلم عددهم غير أن خالد بن الوليد القائد الرابع لجيش المسلمين كان يقول: انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف وما صبر في يدي إلاَّ صفيحة يمانية. فكم قطعت هذه الأسياف قبل أن تنقطع؟ وكم قتل بأسياف غيره من جيش المسلمين؟ أما المسلمون فلم يتجاوز قتلاهم 12 رجلاً، وقد استطاع خالد الانحياز بعد ذلك بجيشه إلى المدينة ببراعة عسكرية عالية سماها رسول الله فتحاً فقال: ((ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم)).

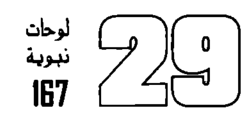
وبقي بعد ذلك أن يمد كل منا بصر بصيرته ليحشد المشهدين في صعيد تأملي واحد ليتجلى من ذلك المعنى العظيم المتكامل من رؤية المشهد واسعاً من طرفيه.

لقد كان أول ما أعلنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما طلب منه إرسال مجموعة من أصحابه إلى نجد خوفه عليهم فقال: ((إني أخاف عليهم أهل نجد)). ولم يرسلهم حتى استوثق لهم بالأمان والخفارة من سيد بني عامر وأنهم في جواره.

كما نلحظ أن عدد القتلى كان كبيراً فهو بعدد شهداء أحد وكلهم رسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يكونوا جيشاً قتاليّاً.

وأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حزن عليهم حزناً شديداً فهم خيرة أصحابه وقراءهم وحزن أصحابه معه وتألموا لهذا المصاب.

ومع ذلك فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يفعل إلا الاستنصار بالله وبسط اليد بالدعاء ولم يسير جيشاً ينتقم لرسله ويؤدب القبائل الباغية بهذا العدوان الغادر، ولم تكن ديارهم تبعد عن المدينة إلا نحواً من مئتي كيلو، في حين أرسل بعد أربع سنين جيشاً قوامه ثلاثة آلاف لتأديب من قتلوا رسولاً



واحداً من رسله مع أن ديارهم تبعد عن المدينة نحواً من ألف كيلو.

فلماذا لم يرسل جيشاً في المرة الأولى رغم مرارة المصاب وكثرة القتلى ولؤم الغدر وفحش العدوان.

إن الجواب يظهر للمتبصر وهو أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن ليضاعف المصيبة ويوسع مساحة الخسارة بإرسال جيش والمسلمون في حالة ضعف وقلة، كما أنهم قريبوا عهد بمصابهم في أحد، فما كان صلى الله عليه وآله وسلم ليرمي بجيشه في صحراء العرب وبين لهوات قبائلها المعادية ودولته لا زالت غضة شارعة في النمو.

إن المواجهات المتعجلة حينئذ ذات تأثير مدمر على دولة الإسلام الصاعدة، ولذا وضح جليّاً كيف أن المشاعر المتسعرة والعواطف المستثارة قد لاذت بالصبر الجميل وأحكم قيادها للبصيرة والنظر المستبصر في العواقب.

إن الذي قال: إني أخاف عليهم أهل نجد هو الذي أنزل عليه ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾، وهو الذي أنزل عليه ﴿فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾، وهو الذي أنزل عليه ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وهو الذي قال في أشد محنة ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، وهو أعلم الخلق بالله وأتقاهم لله وأعظمهم ثقة به وتوكلاً عليه، ولكنها التربية النبوية على الاستبصار في تدبير شأن الأمة، والروية في تقحم المواجهة، فشتان بين خوف الحيطة والحذر وخوف الجبن والخور، أما في السنة الثامنة فإنه بكتابة صلح الحديبية أمن المسلمون قبائل العرب، وقضوا على مؤامرات اليهود في خيبر، وفشا الإسلام، وكثر الجمع وأصبح المسلمون في حال قوة تؤهلهم للمواجهة، ولذا لما قتل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رسول واحد في أقصى الأرض لم يكن صلى الله عليه

وآله وسلم - وحاشاه - بخيلاً ولا جباناً وإنما أساح إلى الشام جيشاً قوامه ثلاثة آلاف ليخوض ملحمة قتالية كانت هي التوطئة لملاحم الفتح الإسلامي لأراضي الروم بعد ذلك.

إن هذا الدرس النبوي يقول لنا: إن الجهاد ليس انفعالات عاطفية، ولا مغامرات ارتجالية، ولكنه شعيرة مستوفية لظروفها مستكملة لشروطها ومحققة أهدافها.



30

ليلة نبوية

هي ليلة من حياة الرسول مرت هادئة رخية كما تمر كثير من ليالي حياته الطيبة المباركة، رصدتها عين واعية يقظة، ثم نقلتها للأمة لحظة بلحظة منذ غروب الشمس وإلى انفلاق الصبح؛ حتى لكأنما هي أمامنا رأي عين. وكان مبتدأها أن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أرسل ابنه عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حاجة له، فأتى رسول الله عشية فوجده جالساً في المسجد فلم يستطع أن يكلّمه لما رأى من انشغاله حتى صلى المغرب، فلما فرغ صلى الله عليه وآله وسلم من صلاة المغرب قام يصلي حتى أذن بصلاة العشاء فلما فرغ من صلاة العشاء صلى في المسجد أربع ركعات حتى لم يبق في المسجد غيره، ثم انصرف إلى بيته فوافاه ابن عباس رضي الله عنهما وأخبره بحاجة أبيه عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا بني بِت الليلة عندنا». ›

وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند زوجه ميمونة خالة ابن عباس فوافق ذلك مراداً ورغبة عند ابن عباس رضي الله عنهما ورغب فيما عرضه عليه رسول الله، فليس مبيته إلا عند ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعم الرجل صنو أبيه وعند خالته ميمونة والخالة أم، ودخل ابن عباس مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيته وهو يقول في نفسه: لا أنام الليلة حتى أنظر ما يصنع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في صلاة الليل. فعزم على السهر ليطّلع على هدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسنته في ليله، ومع ذلك قال لخالته -زيادة في الاحتياط-: إذا قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأيقظيني.

وجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتحدث مع زوجه ميمونة ساعة ثم دخل معها في فراشها ورقد، وليس ثـمَّ إلا وسادة واحدة نام صلى الله عليه وآله وسلم وزوجه في طولها ونام الغلام ابن عباس في عرضها. وبقي يرمق متى يستيقظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لصلاته وكيف سيصليها.

فلما كان نصف الليل استيقظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنظر إلى ابن عباس راقداً فقال: ((نام الغليم)). ثم جلس يمسح النوم عن وجهه المبارك، ثم رفع بصره إلى السماء ينظر بتفكر في هدوء الليل وسكونه إلى عظمة الله في خلقه، وهو يقرأ:﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الألْبَابِ* الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ...﴾، حتى أتم العشر الآيات الخواتم من سورة آل عمران.

ثم قام إلى قربة باليه معلقة في البيت فأطلق رباطها ثم صب منها في إناء عنده

فتوضأ منه وضوءاً خفيفاً سابغاً حسناً - وكانت الليلة ليلة شتاء باردة- ثم تناول سواكه فاستن به، ثم أخذ برداً له حضرمياً فالتحفه متوشحاً به ثم شرع في صلاته كل ذلك وابن عباس يرمقه ويتبع ببصره، فعله حتى إذا استفتح صلاته قام ابن عباس فجعل يتمطى كمن استيقظ من النوم لتوه كراهية أن يرى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يرقبه، ثم توضأ ابن عباس كما توضأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم جاء فوقف عن يساره، فتناوله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من يده فأداره من خلفه فجعله عن يمينه، وجعل صلى الله عليه وآله وسلم يتعاهد الغلام فيمد إليه يده يضعها على رأسه مرة ويمسك بشحمة أذنه فيفتلها مرة، قال ابن عباس: فعرفت أنه إنما صنع ذلك ليؤنسني بيده في ظلمة الليل، ورصد ابن عباس صلاته صلى الله عليه وآله وسلم في ليلته تلك، فكان أول ما افتتح به صلاته أن صلى ركعتين خفيفتين، ثم صلى إحدى عشرة ركعة، فتتامت صلاته ثلاثة عشرة ركعة. وكانت صلاة متبتلة مطمئنة قضى فيها من الليل سبحاً طويلاً قدره ابن عباس بأنه بقدر ما رقد وهو نحو ثلث الليل، ووعى ابن عباس استفتاح النبي صلاته بعدما يكبر فكان يقول: ((اللهم لك الحمد أنت قيام السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السماوات والأرض وما فيهن، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن، وأنت الحق، وقولك الحق، ووعدك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، اللهم لكَ أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، أنت ربنا وإليك المصير، رب اغفر لي ما أسررت وما أعلنت، وما قدمت وما أخرت، أنت إلهي لا إله إلا أنت)).

وكان يقول في دعائه في سجوده: ((اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي سمعي نوراً،

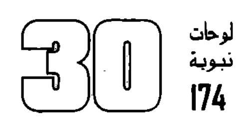
وفي لساني نوراً، وفي بصري نوراً، وعن يميني نوراً، وعن شمالي نوراً، ومن تحتي نوراً، ومن فوقي نوراً، ومن بين يدي نوراً، ومن خلفي نوراً، وأعظم لي نوراً)).

حتى إذا قضى صلاته عاد فاضطجع ونام واستغرق في نومه حتى سمع ابن عباس غطيطه، فلما أذن بلال بالفجر قام فصلى ركعتين خفيفتين ثم خرج إلى المسجد فصلى بالناس الفجر.

وهكذا تتامت ليلة نبوية منورة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نقرأ من هدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيها آيات مبينات وسوراً مشرقات.

أولاً: هذا الحديث ينبغي أن يذكر في دلائل النبوة فهو شاهد صدق على نبوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصدقه فيما بلغه عن ربه، فإن من يقوم في هجعة الليل ولذة الرقاد في جوف بيته ليس حوله إلا زوجه وغلام صغير قد ناما فيها ظهر، ثم يصلي هذه الصلاة المتبتلة الخاشعة لا بد وأنه متشبع بأمره هذا ومستيقن منه أعلى درجات اليقين، إنها حال لا يمكن أن يواتى فيها التصنع والتكلف فالخلوات وأوقات الراحة والاسترخاء لا بد أن ينـزع الإنسان فيها إلى طبعه وعفويته ويسلم قياده لدافعه الداخلي ويقينه المستبطن في قلبه، وكان شأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الحال قاطع الدلالة على صدق خبره عند الله، وبعده -وحاشاه- عن التقول والادعاء، فصلوات الله وسلامه وبركاته على الصادق المصدوق.

ثانياً: نرى في هذا الحديث التصديق العملي لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((وجعلت قرة عيني في الصلاة)). فكم قد صلى الله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ليلته تلك؟ لقد صلى ما بين المغرب والعشاء كله، ثم صلى بعد



العشاء أربع ركعات ترسّل فيها حتى لم يبق في المسجد أحد، ثم قام ليلته بثلاث عشرة ركعة قطع فيها نحواً من ثلث الليل، إنها الصلة النبوية الوثقى بالصلاة بحيث لا يكاد يفرغ منها حتى يعود إليها بغاية التلهف والشوق.

بقي أن نتذكر أن هذا النبي العظيم يقوم إلى صلاته وهو لا يتذكر خطيئة أخطأها وليس في حسابه سيئة أزلفها، يقوم وهو يعلم بصدق موعود ربه له ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً﴾. ولكن يدفعه إلى ذلك معاني أخرى غاية في العظمة والسمو وهي تحقيق العبودية لله، واستشعار حبه، والتلذذ بمناجاته والامتنان له بشكره على عظيم إنعامه، فكانت صلاته صلاة المتلذذ بالعبادة، المستغرق فيها المستريح بها ((أرحنا بها يا بلال)) ، ((وجعلت قرة عيني في الصلاة)).

ثالثاً: هذه الواقعة كانت في السنة التاسعة أو بعدها، بعد أن فتح النبي صلى الله عليه وآله وسلم مكة ودانت له الجزيرة كلها وانقادت إليه، ومع ذلك ترى البساطة في الحياة والكفاف في العيش والتخفف من متاع الدنيا في بيت النبوة الذي أذهب الله عنه الرجس وطهره تطهيراً، فهذا البيت ليس فيه إلا قربة بالية، وفراش واحد ولذا لم يفرش لابن عباس فراش ولم يوسد وسادة، وإنما شارك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وزوجه وسادتها فنام هو في عرضها وناما هما في طولها ولم يمر بك برغم تفصيل كل ما حدث ذكر لطعام أكل في تلك الليلة.

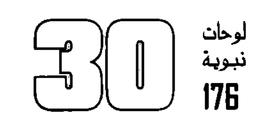
إن هذا النبي الكريم دعا وجاهد ليصلح للناس دينهم ودنياهم، وفارقهم وفارقها من غير أن يرزأهم من دنياهم أو يتخول منها لنفسه ما يترفه به عليهم.

﴿يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾.

رابعًا: يَشدك هذا التوازن في شخصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم وروعة التكامل في أدوار حياته، فمقامه خارج البيت حيث وجده ابن عباس أول ما وجده منشغلاً بأمور الناس ليؤدي حق أمته، ثم بعد أن عاد إلى بيته جلس يتحدث مع أهله ساعة ليؤدي حق أهله، ثم نام ليؤدي حق نفسه، ثم قام إلى صلاته ليؤدي حق ربه، وكانت أدواره حاضرة كلها في ليلته تلك إمامًا، وزوجًا وعابدًا، وبشرًا، وقد أدى لكل ذي حق حقه فصلوات الله عليه وسلامه وبركاته.

خامسًا: يظهر بر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحفاوته بابن عمه عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، وذلك بدعوته للمبيت عنده، وملاطفته بالخطاب بالبنوة «يا بني»، ومقاسمته وسادته التي ينام عليها، ومؤانسته في ظلمة الليل وهو في صلاته بمسح رأسه وفتل أذنه، وهذه اتحافات نفيسة لها وقعها وأثرها. وكل هذا رعاية لقرباه ومكانة عمه، ولك أن تتصور الأثر النفسي العظيم في قلب العباس بن عبد المطلب عندما عاد إليه ابنه فأخبره بخبره وما جرى في ليلته، إنها صورة من بر رسول الله وإكرامه لعمه العباس يتلقاها من خلال الحفاوة بابنه عبد الله وهو القائل: «إن عم الرجل صنو أبيه».

سادسًا: النبوغ المبكر لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما فقد كان في هذه الليلة في الثانية عشرة من عمره ومع ذلك عزم هذا العزم واهتم هذا الاهتمام بحيث دافع النوم عن عينيه ليلة كاملة مع أن طبيعة البيئة في ذلك العصر تجعل الإنسان أحوج شيء إلى النوم في الليل، وحذقه ولباقته في رصد ما جرى تلك الليلة. وكان من بركة ذلك أن عاشت أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم مع رؤية



كاملة لبرنامج النبي صلى الله عليه وآله وسلم الليلي كأنها عنده.



31

ليلة الغار

انطفأت أنوار الرسالات، وتراكمت الظلمات، وأطبقت على الأرض جهالات الظلم والوثنية وأصبحت البشرية على حال تستوجب مقت الله فقد نظر الله إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب.

وكان هناك في حاشية من الأرض بشر من البشر يخرج من البلدة تسرب به الشعاب وتحفه الجبال قاصدًا جبلاً منها اختاره من بينها.

وعندما تنظر إلى هذا الجبل تشعر كأنما خلقه الله لهذا الرجل، ولهذا الحدث فالجبال من حوله تضطجع باسترخاء إلا هو فإن قمته تتطاول كأنما تنظر إلى شيء بعيد. الصعود إلى هذه القمة شاق والطريق وعر، وهو هناك في غاره في قمة الجبل، إذا جلس امتد طرفه في الأفق البعيد ليرى تلقاء وجهه بيت الله الذي بناه أبوه إبراهيم.

وكأنما هو في هذا العلو يتعالى على ما في الأرض من أرجاس الوثنية ›

وظلمها ويسرح بصره من علو في آفاق الكون الرحيب، ويشرف على الأثر الباقي من رسالات الله إلى أهل الأرض.

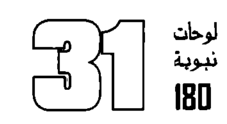
إن هذا المكان في علوه الشاهق ومنظره المهيب وموقعه المميز هو المكان اللائق لسبح الفكر العميق، والتفكر في خلق السموات والأرض، والتوجه إلى الله بعد امتلاء النظر والفكر من رؤية عظمة ملكوته ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك﴾.

وفي ليلة ساجية، والكون في سكونه، وهو في تفكره وتعبده يحضنه غاره في أعلى ذروة في الجبل، إذ قطع عليه سكونه وفكره نزول الملك، وفجئه الحق من ربه.

وياالله لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو في الغار وكل ما حوله سكينة وسكون، لا يسمع فيه نأمة ولا يحس أحدًا، فليس هو على طريق سالك أو حول مكان آهل ثم يقطع عليه سكون الليل فُجاءة الحق له، وتنزل الملك عليه على غير توقع ولا انتظار، فما كان ينتظر رسالة يرسل بها، ولا وحيًا يوحى إليه، ولا كتابًا يبشر به ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾.

أي فزع يمكن أن يستولى على النفس حينها مهما كانت ثباتًا ورباطة جأش، لقد كان مجيء الملك مفاجأة، ولكن خطابه وطلبه كان مفاجأة أخرى: ((اقرأ))، يخاطب بها من لم يقرأ يومًا مكتوبًا ولم يكتب مقروءًا ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾.

ولذلك أجاب بالجواب الذي لا يمكن أن يجيب بغيره: ((ما أنا بقارئ)). أي ما أنا بالذي يقرأ، فأخذه الملك فضمه ضمًا شديدًا بلغ به غاية ما يحتمله، وجهد به جهدًا شديدًا ثم أطلقه وأعاد عليه الأمر مرة أخرى: ((اقرأ))، فأجاب بذات



الجواب: ((ما أنا بقارئ)). وما أحسن القراءة، فأخذه فضمه مرة أخرى ضماً شديدًا حتى بلغ به الجهد والإعياء مبلغه ثم أطلقه، وأعاد عليه المرة الثالثة قائلاً:((اقرأ)). فأجاب بالجواب ذاته، فقد كان صادقًا عند ما قاله أول مرة ولم يتغير شيء من حاله: ((ما أنا بقارئ)). فأخذه الملك فضمه الضمة الثالثة ثم أطلقه وقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ *خَلَقَ الْأِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْأِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

فاجتمعت الآيات قرآنها ومعناها في قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعاد بها مسارعًا إلى بيته، فزعًا يرجف فؤاده وترعد بوادره، حتى دخل على زوجه خديجة، وهو يقول: ((زملوني زملوني)). فقد كان بحاجة إلى الراحة بعد الجهد، والسكينة بعد الفزع، فلما استراح بعد إعياء، واطمأن بعد خوف، وذهب عنه الروع حدث زوجه خديجة وأخبرها خبره وما رأى وما سمع ووعى، فهي المرأة المحبة العاقلة الرشيدة التي يثق بحبها ونصحها وصحة عقلها، وبث إليها مشاعر نفسه وهو يقول: لقد خشيت على نفسي.

فبادرت خديجة بجواب قاطع ساطع، موثق مؤكد، تقسم عليه ولا تستثني، كلا والله لا يخزيك الله أبدًا.

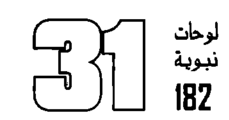
ولتكاد تسمع الكون كله بملائكته وأفلاكه وعظيم مخلوقاته يردد مع خديجة ويحاول أن يسمع محمدًا ما أسمعته زوجه: كلا والله ما أنزل إليك، وأرسلك و أرسل إليك، واختارك من بين كل هذه البشرية السادرة الحائرة ليخزيك أو يحزنك، ولكن ليكرمك ويكرم بك، ويرفعك ويرفع بك، ويشرفك ويشرف بك، ويشرح صدرك، ويرفع ذكرك، فلا تخشى على نفسك. كلا والله لا يخزيك الله أبداً.

❁ وهنا نرى معان عظامًا:

● 1 - كلما استجمعت بصائر البصيرة حول هذا المشهد أدركت ضخامة الحدث وأيقنت بدون مبالغة أن هذا أعظم حدث كوني وقع على الأرض منذ نزول آدم وإلى أن تقوم الساعة، ولم يتحرك اتجاه التاريخ لأي حدث كما تحرك لهذا الحدث. ولم تسعد البشرية بشيء سعادتها بهذا الحدث. ولا أعلم حدثًا أولى بالذكر والشكر والاحتفاء كهذا الحدث، ولذا ذكرته وحفظته آيات القرآن ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾. وجدد ذكراه جبرائيل ومحمد عليهما السلام «فكان رسول الله أكرم ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن» ففي كل رمضان تتجدد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمته ذكرى اللقاء الأول مع الوحي وروح القدس.

بشرى من الغيب ألقت في فـم الغار
وحيا وأفضت إلى الدنيا بأسـرار
بشرى النبوة طافت كالشذا سـحرا
وأعلنت في الربـا مـيلاد أنـوار
وشقـت الصمت والأنسام تحمـلها
تحت الـسكينة من دار إلـى دار
تدافع الفجر فـي الـدنيا يزف إلى
تاريخهـا فجـر أجـيال وأدهـار

● 2 - عظيم عطاء الله وفضله وكرمه -وهو الأكرم- حيث أقبل على البشرية



فأنزل عليها وحيه، وخاطبها بكلامه، واختار منهم بشرًا مثلهم -أبرهم وأزكاهم قلبًا- ليكون فؤاده متنـزل كلمات الله إلى الخلق. وهو فضل من الله وعطاء تطول به من غير استحقاق من البشر بل ولا سؤال منهم، ولكن هو عز وجل بفضله ورحمته يبتدئ بإنعامه ويوالي إفضاله.

أشعر قلبك أن ربك العظيم الأعظم الذي كل الكون الفسيح الرهيب بعض خلقه وملكوته يقبل بعظمته وجلاله وكبريائه فينظر إلى البشرية، وهي تعيش على هذه الأرض والتي ليست إلا هباءة سابحة في كونه الفسيح؛ فيتكلم في شأنها ويتكلم إليها وينزل كلماته تبين للبشرية دينها وتدلها طريقها، فيا لعظمة عطاء الله وفضله، ويا لشرف الإنسان بهذا العطاء والإفضال.

● 3 - تلقى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فُجاءة اللقاء الأول بالفزع، وأخذه الروع ورجع مسرعًا يرجف فؤاده وترعد فرائصه، وهذا دليل صدق على صدق نبوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأن ما جاءه لم يكن أمرًا يتوقعه أو ينتظره أو يرجوه ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾. في حين أن هناك من بني إسرائيل ومن حنفاء العرب من كانوا يتوقعون ظهور النبوة ويستشرفون لها. ولكن حكمة الله لا تهب هذا الفضل لمن ينتظره ولكن لمن يليق بالنبوة ويحتمل أعباء الرسالة ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

● 4 - كل كلمة في هذه الآيات مقصودة بذاتها بحيث ترى الحكمة العظيمة أن ينزل القرآن بهذا الاستفتاح، ونقف منها وقفات:

أ - البدء بالأمر بالقراءة والإشاد بالقلم والكتاب.

ويتنزل ذلك على نبي أمي ما قرأ يومًا كتابًا ولا خطه بيمينه. ولو كان هذا الأمي يختار ما يوحى إليه أو يتقوله -وحاشاه- لما بدأ بإشهار أمر وإعلانه وهو غير متصف به. لتبقى هذه الآية دلالة على نبوة النبي وربانية الوحي، وأن محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم نبي يوحى إليه فيبلغ ما أنزل إليه من ربه.

ب - البدء باسم الله الذي خلق، فتعم كل ما خلق الله في الكون.

ثم فصل فقال: ﴿خَلَقَ الْأِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾. وفي هذه الآيات عبرة عظيمة، فهي تسكب الطمأنينة في قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتضع كل من سيواجهه من أعداء وكائدين ألداء في حجمهم الحقيقي، فكل هؤلاء خلق، والذي أرسلك هو الخالق، فما وزن هؤلاء وما الاحتفال بهم إذا كان المرسل هو خالقهم.

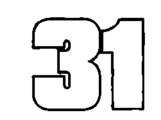
ج - ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾.

ولم يقل هنا الكريم بل الأكرم من كل كريم، وهنا الكرم غير المتناهي، ومن كرمه إنزاله هذا الوحي ومن كرمه اختيارك لتلقي رسالته من بين كل الناس ومن كرمه حياطتك ورعايتك، فإذا واجهك الجاحدون المعاندون فإن الذي أرسلك هو الأكرم؛ والأكرم لن يسلمك ولن يخزيك، فما أروع أن يتلقى البشرى وحيًا من الله اقرأ وربك الأكرم ثم يتلقى تقريرها من زوجه «كلا والله لا يخزيك الله أبدًا».

د - ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾.

فهذا النبي الذي أشاد وحي الله عليه بالعلم والقلم تتابع آلاف العلماء، وآلاف آلاف الكتب تكتب وتقرأ في علمه وشريعته ووحي الله إليه وهو أمي ما قرأ ولا كتب، ولكن العلماء يتعلمون ما كتبه غيرهم أما رسول الله فهو أمي علم البشرية ما تكتب.





32

يـــا أسـامة

خرج مجاهداً في هذه الغزوة، متوثب الروح متقد الحماس، فقد كان في بكور شبابه، وعنفوان فتوته، لم يجاوز السادسة عشرة من عمره، فلعله كان أصغر الجيش سنّاً، ولعلها أول غزاة يخرج فيها. حتى إذا لقوا العدو كانت همته تدفعه أن يلقى أشد المشركين بأساً، وأنكاهم فتكاً، وأكثرهم مضاءاً.

فكان من المشركين رجل إذا أقبلوا كان أشدَّهم وإذا أدبروا كان حاميهم، ولا يشاء أن يقصد إلى رجل من المسلمين إلا قصد إليه فقتله، فبادره هو ورجل من الأنصار، حتى إذا غشياه بسلاحهما، واستمكنا منه، صرخ بكلمة النجاة والفكاك:

« لا إله إلا الله » فأشاح الأنصاري سيفه، وأما هو فرأى أنها صرخة المتعوذ من رهق السيف، والمستمسك بها سبباً للنجاة، كيف وقتلاه من المسلمين لازالوا يتشحطون في دمائهم، ولذا أمضى فيه رمحه ولسان ›

حاله يقـول:

يذكرني حـم والرمح شاجر
فهـلا تـلا حـم قبـل التقـدم

وخـرَّ فارس القـوم صريعاً، فتضعضع جمع المشركين، وانفلَّ حدهم، ثم كانت الهزيمة عليهم، وجاء البشير إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبشره بالنصر، ويخبره أخبار المعركة وما لقوا فيها، وكان مما أخبره نبـأ ذاك القتيـل، وما تعوذ بـه قبل أن يقتل، فبلغ ذلك من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مبلغه، واستدعى أسامة بن زيـد رضي الله عنهما ليقول له: ((يا أسـامة، أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟!)). قال: يا رسول الله إنما قالها مخافة السلاح والقتل ؟! فقال: ((ألا شققت عن قلبه؛ حتى تعـلم أقالها مـن أجـل ذلك أم لا؟!)).

فأراد أسامة أن يبين لرسـول الله استحقاق ذلك الرجل القتـل لكثـرة من قتـل من المسـلمين، فقال: يا رسـول الله أوجع في المسلمين، وقتل فلاناً وفلاناً. وسمى أناساً يعرفهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فهُمْ أصحابه الذين يراهم في مسجده، ويلقاهم في طريقه، ثم هم جنوده الذين خرجوا قتالاً تحت رايته، إن ذلك كافٍ في استثارة عواطف النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهم بما يعظم جرم قاتلهم واستحقاقه للقتل كما قتلهم.

وإذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتجاوز ذلك كله بالتذكير بمعقد العصمة، قائلاً: ((فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟)).

ورأى أسامة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يقبل تأويله الذي تأوّل، ولا عذره الذي به اعتذر، واستبانت له حرمة الدم الذي سفكه، وعظم الذنب الذي قارفه، فخاطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم خطاب المعترف

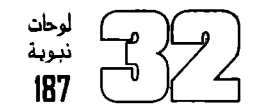
المستعتب، قائلاً: يا رسول الله استغفر لـي.

وانتظر أسـامة أن يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: غفر الله لك، ولكن رسول الله أعاد ما قال: «كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة». فكرر عليه أسـامة: يـا رسول الله اسـتغفر لـي، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يزيد في جوابه على قـوله: «كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة»؛ حتى كرب أسامة لذلك كرباً شديداً تمنى معه أنه لم يكن أسـلم إلا هذه الساعة؛ حتى يهـدم إسـلامه ما قبـله، ويأمن جريرة فعلتـه.

وقد بقي أثر ذلك التأديب النبوي عميقاً في نفس أسامة، فكان أكف الناس عند كل فتنة يخشى أن يكون من قتلاها من يشهد ألا إله إلا الله، حتى كان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه على جلالته وسابقته وكبر سنه يقول: لا أقاتل مسلماً حتى يقاتله أسامة. لشدة ما يرى من توقيه واحتياطه فيما يلتبس من أمـر الدماء، فصلوات الله وسلامه على عبده ورسوله محمد الذي علم فأحسن التعليم، وأدب فأحسن التأديب.

● 1 - يلفت النظر صغر عمر أسامة رضي الله عنه في هذه الغزوة، ولك أن تعجب أن يكون فتى في هذه السن ينتدب نفسه للقتال وفق رؤية واضحة، وهدف محدد، وغير خاف أن النفرة إلى ساحة الجهاد قد سبقها تكوين نفسي وإعداد، وتهيئة عقلية وروحية؛ حتى تكونت عنده درجات عليا من اليقين والاحتساب، وأصبح لائقاً للانخراط في سلك الجندية الإيمانية.

ثم إن هذا العتاب النبوي يدل على نضج عقلي لدى المتلقي، بحيث لا يبدر في



ذهنك أن هذا الكلام النبوي، وبهذا الأسلوب موجه لمراهق في السادسة عشرة من عمره، بل لكأني بك وأنت تحفظ هذا الحديث منذ زمن قد فجأك التقدير العمري لأسـامة رضي الله عنه.

إن ذلك كله أثر من آثار التربية النبوية التي تبني النفوس فتحكم بناءها وتنشئها فتحسن نشـأتها.

● 2 – كما يلفتك قـوة تقرير هذا المعنى وهو حرمة الدم المعصوم، والانكفاف عنه مهما كانت المثيرات والمسوغات، ووضوحه في نفوس الصحابة، وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد ملأ به نفوسهم، فكان حاجزاً منيعاً يمنعهم تقحم هذا الذنب أو الاستهانة به، ودلالة ذلك من الحديث ظاهرة في كف الأنصاري عن الرجل، مع أنه رأى ما رآه أسـامة من قتله من قتلهم من خيار المسلمين، وكان مستثاراً كما كان أسامة رضي الله عنه، ولكنه ما إن سمع الهتاف بالشهادة حتى أشاح السيف عنه، وكف عن القتل بعد أن استمكن منه.

كما يظهر ذلك من فشو الخبر حتى بلغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع البشرى بالنصر، بل إن أسامة رضي الله عنه ما إن قتل الرجل حتى وقع في نفسه من ذلك شيء، وهذا كله يبين أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد قرر هذا المعنى بجلاء لا غموض فيه، وبيان لا لبس معه حتى استبان لأصحابه وتشبعت به نفوسهم.

● 3 – كان أسامة بن زيد رضي الله عنهما حفيد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وابن ابنه، فكان يدعى أسامة بن زيد بن محمد قبل أن ينسخ التبني، ثم



بعد أن حُـرِّم التبني أبقاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ممارسة عاطفية، وحناناً أبويّاً مع أسامة حتى كان ـ بأبي هو وأمي ـ يغسل وجه أسامة وهو صبي، ويقول: «لو كان أسامة جارية لحليته وكسوته وأعطيته». وعثر أسامة مرة فشج وجهه، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يمص الدم عن وجهه ويمجه، وكبر أسامة وكبر معه حب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى عرف أنه حِبُّ رسول الله وابن حِبِّـه.

فلما وقع منه هذا الخطأ عاتبه النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذه المعاتبه التي لا نستبين شدتها إلا إذا قرناها بحال أسامة عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعظم مكانته عنده ومع ذلك نراه يعاتب هذا العتاب البليغ، ثم يستعتب ويتطلب استغفار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلا يزيده بأكثر من ذلك الاستفهام الاستنكاري: «كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟». وينقضي ذاك المجلس دون أن يسمع أسامة ما تشوق إليه من استغفار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولو كان أحد يحظى باستغفار رسول الله عن مثل تلك الزلة لكان أسامة أولى الناس بذلك، ولذا أثر هذا الحزم النبوي في نفس أسامة كل هذا الأثر؛ حتى تمنى أنه لم يكن أسلم إلا هذا اليوم؛ حتى يهدم إسلامه ما كان قبله، وبقي أثرها في نفسه بقية عمره، حتى عرف بذلك وشهر به.

● 4 - إن تحليل موقف أسامة رضي الله عنه يفتح أبواباً من المعاذير، وصنوفاً من التأويلات لما صنع، فقد قتل أسامةُ ذاك الرجل في ميدان معركةٍ كان هـو فيها في صفوف المشركين مقاتلاً معهم، معملا سلاحه في المسلمين قتلاً مجهزاً، ورأى أسامة خيار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قتلى يتشحطون

في دمائهم بسيف ذاك الرجل، ورأى كيف كان يبلغ جهده في حياطة قومه من المشركين، فهو أشدهم إن هجموا، وهو حاميهم إن انهزموا، وقد غشيه أسامة ودماء قتلاه من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا تزال رطبة على ثيابه، ولم ينطق الشهادة حتى استمكن منه السلاح، وأيس من النجاة فقالها حينئذ، على حال لا تدل إلا على أنه قالها متعوذاً من القتل، ولم يقلها مستيقناً من قلبه.

ومع ذلك كله نرى النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد أغلق أبواب هذه التأولات كلها، وأبان بعتاب شديد أن ما في القلب لا يحكم عليه إلا علام الغيوب: « أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها من قلبه أم لا ». وهذا كله يبين أن هذه التأولات مع قربها ومطابقتها للحال قد ألغيت، ولم يكرس حينئذ إلا الأصل الأصيل، وهو حرمة الدماء المعصومة، لأن فتح باب التأول في هذا الأمر غاية في الخطورة، فالتأويلات والتبريرات ستتداعى حتى تدخل الشبه والتهم والأهواء، وهو ما رأيناه عياناً ممن فتحوا ثقباً في هذا الباب، كيف اتسع لهم حتى صار بوابة تدخل منها استباحة دماء المسلمين بأدنى الشبه، وما نحسب أن من بدأ الأمر بدأه وهو يظن أن هذا منتهاه، ولكن تداعيات الأفكار والأحداث ليست تحت السيطرة والتحكم.

أما الهدي النبوي فقد أغلق أبواب التأول في الدماء، وقطع سبلها، وأبقى أمر حرمتها محكماً مستبيناً لا يـزيغ عنه إلا هـالك.



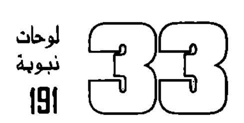


33

يوم عيد

هي الفتاة العروب حديثة السن تحب اللهو، واليوم يوم عيد وأنس وبهجة، فأتتها صويحباتها معهن الدفوف ليعشن فرحة ذلك اليوم، ويتشاركن الأنس به، وضُربت الدفوف في الحجرة النبوية، وغنت الجواري بأشعار الأنصار في حروبهم، ثم دخل النبي صلى الله عليه وآله وسلم حجرته فما توقف ضرب الدفوف ولا شدو الغناء، ولم تُرَع الفتيات، ولم ينجفلْن لدخول رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وأما هو صلى الله عليه وآله وسلم فتوجّه إلى فراشه، فاضطجع عليه، والتحف رداءه، وخمّر وجهه، وحوّله إلى الجدار، واستمر لهو الفتيات وأنسهن، والحجرة النبوية معطرة بأنفاس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في احتفالية بهيجة وأنس غامر تعيشه عائشة -رضي الله عنها- وصويحباتها في بيت النبوة الذي أذهب الله عنه الرجس وطهّره ›



تطهيراً، وبينما الجواري في غنائهن ذلك إذ دخل أبوبكر الصديق رضي الله عنه بيت ابنته عائشة، فاستنكر الطبول والغناء في بيت النبوة، ونهرهن قائلاً: أمزمارة الشيطان في بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟!

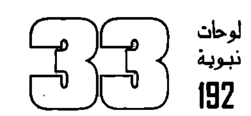
وإذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان مخمّراً وجهه، متحوّلاً إلى الجدار يكشف وجهه، ويلتفت إلى أبي بكر قائلاً: «دعهن يا أبا بكر فإنه يوم عيد». وكانت أيام عيد الأضحى، وكأنما أعطاهن هذا الإذن النبوي دفعة أخرى من الحيوية والحماس، وجلس أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلما رأت عائشة غفلة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبي بكر عنها غمزت الجاريتين فخرجتا.

ولنا مع هذا الخبر وقفات:

● 1 - لقد استمرت الجواري في غنائهن عند دخول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يقطع دخوله عليهن أنسهنّ ولهوهنّ، وهنا نتساءل: هل كان غناؤهن سيستمر لو دخل عليهن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واجماً، وهن الجواري حديثات السن، وهو صلى الله عليه وآله وسلم الذي أُلقيت عليه المهابة؟

إن ذلك يكشف لنا وكأنا نرى رأي عين أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دخل بيته باسماً، ونظر إلى الجواري مرحّباً، وأنه ضحك لما رآهن في هذا الأنس الجميل!!

أليس الذي وصفته عائشة رضي الله عنها، وقد سُئلت ما يصنع في بيته، فقالت:

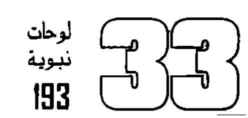


كان بشراً من البشر، إلاّ أنه كان ضحوكاً بسّاماً!! ولذا كان دخوله صلى الله عليه وآله وسلم بيته مما يزيد الأنس، ويضاعف الفرح، وينشر السعادة والإبهاج. فأي رسالة أبلغ من هذه الرسالة إلى الأزواج والآباء الذين إذا دخلوا بيوتهم لم يُر منهم إلاّ العبوس، ولم يُسمع منهم إلاّ الأمر والزجر؟!

● 2 - يظهر من الخبر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يستمتع بغنائهن والذي كان يناسب الجواري حديثات السن، وهو صلى الله عليه وآله وسلم في سن الكهولة، ولكنه كان يستمتع بأنس زوجه وصويحباتها ويفرح لفرحهن، ولذا لما اضطجع خمّر وجهه، وحوّله إلى الجدار حتى لا ينقمعن ولا يُحرجن إذا نظرن إليه، ولم يكن في بيت النبوة حجرة أخرى فيتحوّل إليها، ولذا انفصل عنهن بهذه الطريقة اللطيفة: تغطية وجهه وتحوّله إلى الجدار؛ مراعاة لشعورهن حتى ينطلقن في غنائهن على سجيتهن بلا تحرّج ولا مهابة.

فأي شفافية في الإحساس ومراعاة للمشاعر النفسية ألطف وأجمل من هذه الرعاية النبوية لمشاعر هؤلاء الفتيات في لهوهن ذلك.

● 3 - يلفتك تفهّم الرغبة الفطرية للتعبير عن الفرح وانفعالات السرور باللهو والغناء، فالفرح نشوة نفسية غامرة لا يُعبّر عنها بالتواقر الساكن المتكلف، ولكن بالتفاعل الحيوي، والحراك المبهج، واللهو الذي يُشيع مشاعر الفرح والسرور، ولذا أعطى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم النفوس نصيبها من ذلك في مناسبات الأفراح كالزواج والعيد وقدوم المسافر، ونحو ذلك من فجاءات السعادة ومواسم الفرح. وعبّر عن ذلك الصحابة، كل فئة بالطريقة التي تحسنها وتطلق من خلالها أحاسيسها ومشاعرها؛ فالجواري بالدفوف والغناء، والحبشة



بالحراب والدرق والإنشاد، وغيرهم بالأنس النفسي بهذا اللهو والحفاوة به.
إن التعبير عن مشاعر الفرح والسرور فطرة بشرية، والحفاوة بها سنة نبوية دلّ عليها هدي النبي الذي بُعث بالحنيفية السمحة.

● 4 - كانت حجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ملاصقة للمسجد شارعة إليه، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو في حجرته يسمع صوت أصحابه في المسجد إذا تحدثوا، وكان أبو بكر وهو في المسجد يسمع صوت ابنته عائشة في حجرتها إذا تكلمت وضحكها إذا ضحكت، فما ظنك بضرب الدفوف وغناء الجواري في الحجرة النبوية كيف سينتشر مداه في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فما أجمل هذا الإعلان عن شعيرة الفرح والسرور أن تضرب بالدفوف داخل الحجرة الشريفة ويسمعها من في المسجد النبوي.

● 5 - يعجبك فطنة عائشة رضي الله عنها وحسن تعاملها مع الموقف، فهي لم تمنعهن من الغناء وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعهن، ولم تستمر فيه وقد جلس أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليتحدثا فانتظرت حتى غفلا عنها ثم غمزت الجاريتين فخرجتا وكأنهن قد انتهين من شأنهن واستوفين من الغناء نصيبهن، وهذه براعة من عائشة في إدارة الموقف على حداثة سنها.



34

شاب وشابة

أما هو فالفتى الرائع في ريعان الشباب، وفي غضاضة التاسعة عشرة من عمره كان أجمل الناس وجهاً، أبيض وضيئاً حسن الشعر جميل الجسم، يركب ردف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على عجز ناقته القصواء من المزدلفة إلى منى، فلما رمى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جمرة العقبة أتى المنحر عند الجمرة الصغرى، فقال: ((هذا المنحر، ومنى كلها منحر، فانحروا في رحالكم))، ثم وقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للناس يفتيهم واجتمعوا إليه يسألونه.

أما هي فامرأة من خثعم شابة حسناء وضيئة، جاءت تسأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في موقفه ذلك فقالت: يا رسول الله إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يثبت على الراحلة فهل يجزئ أن أحج عنه. قال: ((نعم)).

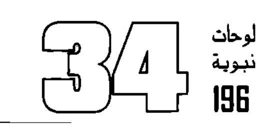
وكان الفضل بن العباس رضي الله

عنهما خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينظر إليها وأعجبه حسنها، وجعلت هي تنظر إليه وأعجبها حسنه، فالتفت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرأى الفضل ينظر إليها فأدار يده الشريفة إليه وأخذ بذقنه وعدله إلى الشق الآخر، فإذا جاءت من الشق الآخر أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم برأس الفضل يلويه من ذلك الشق، فقال العباس بن عبد المطلب: يا رسول الله لويت عنق ابن عمك! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «رأيت غلاماً شابّاً وجارية شابة، فخشيت أن يدخل بينهما الشيطان».وقال للفضل: «يا بن أخي إن هذا يوم من ملك فيه سمعه وبصره ولسانه غفر له».

ولك مع هذا الخبر وقفات:

● 1 - لطفه صلى الله عليه وآله وسلم في تصحيح الخطأ فإنه لما التفتَ إلى الفضل رضي الله عنه ورآه ينظر إلى المرأة باشر بيده الشريفة صرف وجه الفضل إلى الجهة الأخرى، وهذه الحركة التي التقت فيها يد المصطفى مع وجه ابن عمه الفضل - كما أنها تصحيح خطأ - فإن فيها أبوة وعاطفة ومشاعر جميلة، ولن تحدث في نفس الفتى إلا لذة الإحساس بقربه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومكانته منه، وقد كان يمكن أن يصرفه عما هو فيه بأمر أو زجر أو نظر شزر، ولكنه صلى الله عليه وآله وسلم اختار هذا الأسلوب الرفيق اللطيف وإن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف.

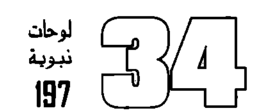
● 2 - أنه صلى الله عليه وآله وسلم صحح الخطأ ولم يجعل لنفسه حظّاً في



تقييم الخطأ فعند ما علل صرف وجه الفضل علله بخوفه عليه وعلى الفتاة من فتنة الشيطان. ولم يقل كيف يفعل ذلك وهو معي، وأنا أمامه، وقد اختصصته من بين كل الناس أن يكون رديفي، ونحو ذلك مما يلابس نفوس كثيرين إذا وقعت الأخطاء أمام أعينهم رأوا فيها تحديا لهم، أو انتقاصا لمكانتهم فاختلط عليهم إنكار المنكر بالانتصار للجاه والنفس والمكانة ومن ثم تتعقد عملية الإنكار وتتداخل فيها الحظوظ.

● 3 - لا تتضح لك الصورة المشرقة العاجبة للرفق النبوي في هذا الموقف إلا إذا ضممتها إلى الصورة الكاملة للمشهد كله، فحال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في اليوم العاشر من ذي الحجة وهو يوم الحج الأكبر كانت في حال من الإجهاد المتواصل بعد سفر بعيد، وجهد طويل، وقوفٍ في يوم عرفة، ومسيرٍ في زحام شديد من المزدلفة إلى منى، ومسئولية عن هذه الجموع العظيمة حوله والتي تزيد على مائة وعشرين ألفاً، وكان صلى الله عليه وآله وسلم في حال استنفار تعليمي ودعوي تشوبه لهفة الوداع، وهذا كله يستنزف الطاقة النفسية ويجعل الإنسان أقرب شيء إلى التوتر وسرعة الانفعال ومع ذلك كله كان نبيك صلى الله عليه وآله وسلم على هذه الحال من الخلق العظيم والنفس الرضية في تعليمه وتأديبه.

● 4 - يعجبك بل يبهرك روعة التعليل الذي رد به النبي صلى الله عليه وآله وسلم على عمه العباس عندما قال: يا رسول الله لويت عنق ابن عمك! فأجاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم جواباً فوريّاً ولكن عندما تتأمله ترى كل كلمة



منه منتقاة بعناية بالغة حيث قال صلى الله عليه وآله وسلم: «رأيت غلاماً شابّاً وجارية شابة »، وفي رواية: «غلاماً حدثاً وجارية حدثة». وفي هذا الوصف دلالة على تفهم رغائب الشباب ونوع اعتذار عنهما بحداثة السن وقلة الخبرة، ثم عقب ذلك بذكر الخوف والخشية، ولكنه لم يقل: فخفت عليها منه، أو خفت عليه منها، ولكن شملهما بالخوف عليهما من عدو خارجي هو الشيطان فقال: «فخفت عليهما الشيطان »، وهذا يذكرنا بالأسلوب اليوسفي عندما قال يوسف عليه السلام مجملاً ما جرى بينه وبين إخوته ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ ولم يقل: من بعد أن فعل بي إخوتي كذا وكذا.

● 5 - نلاحظ أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد باشر الإنكار على ابن عمه الفضل بهذا الأسلوب اللطيف الجميل، ولكن لم تذكر روايات الحديث أنه أنكر على الفتاة أو كلمها بغير الإجابة على سؤالها مع أنها كانت تنظر كما كان الفضل ينظر، فهل تساءلت لماذا لم يفعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك ؟.

إن الجواب المتبادر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم باشر التأديب مع ابن عمه الفضل لأن قرب الفضل من النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقرباه له تجعله يحتمل ذلك من النبي صلى الله عليه وآله وسلم بحفاوة ورضا، ولن يشعر وهو الشاب ذو القرب والقربى من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالحرج من ذلك.

أما الفتاة الخثعمية فإن مهابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم تملأ نفسها، ولعل هذه أول مرة تلقاه وتتحدث إليه، فلو باشرها بالتأديب أو التوجيه لشعرت بحرج بالغ، وربما استعبرت باكية لرهافة مشاعر الفتاة وحياءها. ولذا اكتفى

النبي صلى الله عليه وآله وسلم معها بالأسلوب غير المباشر والذي تفهمه من توجيهه المباشر لابن عمه وإشراكها في الخوف عليها يوم قال: «رأيت شاباً حدثاً وشابة حدثة فخفت عليهما الشيطان».

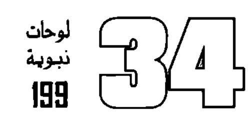
وقد دل سؤالها بين يدي النبي على أن لديها من الفهم والذكاء ما يجعلها تفهم هذه الإشارة تمام الفهم، وتتمثلها غاية التمثل، فبأبي وأمي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما أجمل وألطف وأبلغ تعليمه إذا علم وتأديبه إذا أدب.

● 6 - بقي أن نذكر ما في إرداف الفضل بن العباس من معنى جميل وهو ما يظهر من قرب النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الشباب وإيلاءهم الحفاوة والمكانة والاهتمام وفي ذلك اختصار لفوارق السن وتقوية التواصل بين الأجيال.

كما أن إردافه لابن عمه الفضل وهو أكبر أبناء عمه العباس بر وإكرام بعمه العباس وإنك لتشعر أن العباس وهو يقول: يا رسول الله لويت عنق ابن عمك. كان يعيش نشوة هذا الإكرام فهو لم يقل: لويت عنق ابني، ولكن قال: ابن عمك. وكأنما كان الشيخ يقول لكل من حوله هذا رسول الله ابن أخي، وهذا رديفه ابني، وهذا مكاننا منه وهذا بره بنا.

لقد كانت هذه إحدى صور إكرام النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعمه العباس وبره به وهو الذي كان يقول: «إن عم الرجل صنو أبيه».





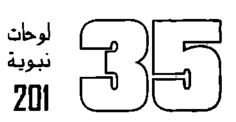
35

مهلاً

اختارت هذه الطائفة من يهود يثرب وطناً، ولقد تجاوزوا في طريقهم إليه أماكن أكثر خصباً وجمالاً وغنى كوادي القرى، وذلك لأنهم كانوا يتتبعون صفة الأرض التي يهاجر إليها النبي الذي سيتبعونه، وكانوا يتحدثون عن نبي يبعث في أرض ذات حرار ونخل، ولذا اختاروا هذه الأرض وسكنوها انتظاراً لبعثة هذا النبي ومهاجره، ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فكانوا يستنصرون به ويتوعدون مشركي العرب ببعثته.

وقد بُعث هذا النبي المبشر به كما انتظروا، وهاجر إلى أرضهم كما توقعوا، ولكنه لم يبعث منهم، وإنما بعث من العرب ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ حسداً وبغياً ألا يكون بعث منهم ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

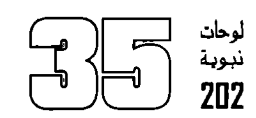
جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة فتعامل مع اليهود >



بعظمته الأخلاقية التي وصفه بها ربه يوم قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. أما هم فإن قلوبهم ظلت مغلقة على سواد الحقد والحسد، ولذلك كانت تصرفاتهم وكلماتهم تعلن ما تضمره قلوبهم، ومن ذلك: أن رهطاً منهم استأذنوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بيته فلما حيوه، قالوا: السام عليك يا أبا القاسم. ولم يقولوا: السلام عليكم -والسام هو الموت- وحرفوا الصيغة حتى تبدو الكلمة بريئة في ظاهرها، وإن كانت لئيمة في باطنها، لكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهمها، فقال مجيباً لهم: ((وعليكم))، وفهمتها عائشة رضي الله عنها، والتي كانت الزيارة في بيتها؛ فغضبت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقالت لهم: بل عليكم السام والذام (أي المذمة والخزي)، ولعنكم الله وغضب عليكم، فأقبل عليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقال: ((مهلاً يا عائشة لا تكوني فاحشة، وإياك والعنف والفحش، فإن الله تبارك وتعالى لا يحب الفاحش المتفحش، وعليك بالرفق، فإن الله رفيقٌ يحب الرفق في الأمر كله)). قالت يا رسول الله: أولم تسمع ما قالوا، قالوا: السام عليكم؟ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((أولم تسمعي ما قلت لهم؟ أليس قد قلت: وعليكم، فيستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم في، يا عائشة لم يدخل الرفق في شيء إلا زانه، ولم ينزع من شيء إلا شانه)).

وبقيت لنا وقفات مع الحديث:

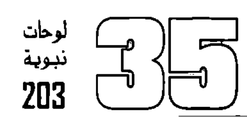
● 1- التعامل النبوي مع اليهود، فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تعامل معهم بما دله عليه خلقه الكريم العظيم، من الرفق والتواصل برغم مسلسل



مكائدهم المتوالي، وبرغم ما كانت فلتات ألسنتهم تبينُ مما تكنُ صدورهم، ومع ذلك عاملهم بالتي هي أحسن ما وسعهُ، ودفع بالتي هي أحسن ما وسعهُ، وهل أعظم وأكرم من أن يفتح لهم مصارع أبوابه، وأن تطأ أرجلهم فراش بيته، فيدخلون إليه في حجراته المطهرة التي أذهب الله تعالى عنها الرجس وطهرها تطهيراً، إن هذا يبين جانب الثقة غير المتناهية في تعامل النبي صلى الله عليه وآله وسلم معهم، وبذله الجهد في الاحتواء والتألف والدعوة والهداية ما وسعهُ، ولذلك كانت هذه الزيارات منهم إليه في بيته، ومنه إليهم في بيوتهم وفي مدراسهم تبينُ جانب الوثوق برسالته والرقي الأخلاقي في تعامله صلى الله عليه وآله وسلم.

● 2 - نلاحظ نهي النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعائشة رضي الله عنها عن الفحش مع أنها إنما غضبت له صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه سمع الاستثارة التي أثارتها كما سمعتها هي، ومع ذلك نهاها عن الفحش حتى لا تعتاده، لأن هذه الخصلة لا تصلح صفة للمؤمنين؛ فهي مما لا يحبه الله، وما لا يحبه الله يتجافى المؤمن عنه ويتوقاه، ويحرص أن لا يكون من خلقه وسمته، ولذلك كان في موقف النبي صلى الله عليه وآله وسلم تربية لعائشة رضي الله عنها، مع أن الذي صدر من اليهود كان أقبح، ولكنه كان يتعاهد نقاء عائشة أن يشوبه شيء من الفحش، أما يهود فإنه كان يبقي حبال التواصل معهم لعل قلوبهم أن تقبل، ولعل استجابتهم أن تأتي، ولتقوم مع ذلك حجة الله البالغة عليهم.

● 3 - نلاحظ عنايته صلى الله عليه وآله وسلم بالرفق يوم أمر به عائشة رضي الله



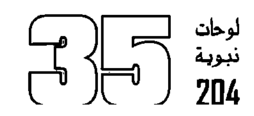
عنها ورغبها فيه، وأخبر أنه صفة الله التي يحبها عز وجل من عباده في أمورهم كلها، وأنه يزين كل شيء يدخله، ويشين كل شيء ينزع منه، والعجيب أن يستعمل الرفق ويأمر به حتى مع يهود الذين أخبره ربه أنهم أشد الناس عداوة، وهم الذين بادؤوه بالسوء، وبطريقة تدل على الاستخفاف بالمخاطب، فلو كان أحد يستثنى من الرفق لكانوا هم اليهود وفي هذا الموقف ومع ذلك أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم باستعمال الرفق معهم، ولا عجب فهو الذي حرض علي الرفق في الأمور كلها.

وبقي أن نتساءل إذا كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم استعمل الرفق وأمر به مع أشد الناس عداوة فما مدى استعمالنا الرفق في حياتنا وفيما بيننا ومع إخواننا الذين تربطنا بهم وشيجة الدين وولاية الإسلام، وكيف سيكون حال مجتمعنا لو زانه الرفق في أموره كلها.

● 4 - نلاحظ أنه صلى الله عليه وآله وسلم قد فهم خطابهم وما قالوه، ومع ذلك لم يتجاوز - بأبي هو وأمي - في رده عليهم بأكثر مما قالوا، فقال: «وعليكم». فما قالوه رده عليهم من غير بغي أو زيادة أو تجاوز.

وهذا غاية العدل في الرد، فهم لو حيوه بتحية طيبة لردها بأحسن منها، أما عندما حيوا بتحية سيئة ردها عليهم بمثلها، ولم يزد صلى الله عليه وآله وسلم بل لم يترتب على هذا الموقف أي تداعيات أخرى لاحقة، وقد كان صلى الله عليه وآله وسلم في موقع الزعامة والقيادة والقدرة على ذلك لو أراد.

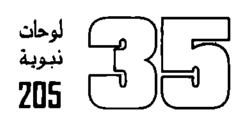
● 5 - نلاحظ الأمن العام الذي بثه النبي صلى اله عليه وسلم في المدينة بحيث



أصبح كلٌّ يشعر أنه في خفارة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فاليهود يدخلون على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حجراته وهم آمنون، بل إنهم عندما حيوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذه التحية المعوجة لم يقولوا كلمة لا يستطيع فهمها إلا هم، فقد فهمها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فوراً فقال: ((وعليكم)). وفهمتها عائشة رضي الله عنها على حداثة سنها، ولكنهم كانوا يعيشون في خفارة الأمن النبوي، ويعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يمكن أن يبغي أو يتجاوز في عقوبتهم أو يتشفى بالانتقام منهم.

● 6 - من النفوس نفوس مجدبة لا تفيد معها العظمة الأخلاقية، ولا تطفىء أحقادها روعة التعامل وجمال التواصل وحسن العهد، وهذا ما ظهر في هذه الطائفة من يهود برغم حسن تواصل النبي صلى الله عليه وآله وسلم معهم حتى فتح لهم بيته، وأوطأهم فراشه إلا أن نفوسهم المظلمة أبت إلا أن تخرج نفثات من حقدها، ولو بهذه التحية المحرفة وهم أهل تحريف الكلم عن مواضعه، ولكن نبيك صلى الله عليه وآله وسلم كان يتعامل معهم بمبادئه وبخلقه وبعظمته هو، وليس بمبادئهم وأخلاقهم هم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه وعلى آله وأزواجه.



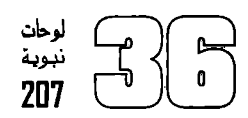


36

ابنة أبي بكر

.. «إنها ابنة أبي بكر» يقولها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم باسماً متهلل الوجه حبّاً وإعجاباً بعائشة رضي الله عنها، وهو يرى سرعة بديهتها ورباطة جأشها على حداثة سنها وهي تدافع عن نفسها حتى أثخنت وتغلبت وأفحمت، بعد أن سمع ما قيل عنها وما قيل لها.

وكان من خبر ذلك أن أزواج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كن حزبين، حزب عائشة، وفيه حفصة وسودة وصفية رضي الله عنهن في الجانب الجنوبي، وحزب زينب وأم سلمة وفيه أم حبيبة وجويرية وميمونة رضي الله عنهن في الجانب الشمالي، وكان الأنصار حول بيوتات النبي صلى الله عليه وآله وسلم، كسعد بن معاذ وسعد بن عبادة وأبي أيوب رضي الله عنهم يكثرون إلطاف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم



بالهدايا، وذلك لقرب جوارهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان الناس قد علموا حب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعائشة رضي الله عنها، فكانوا يتحرون بهداياهم يوم عائشة يبتغون بذلك سرور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإذا كان عند أحدهم هدية يريد أن يهديها أخرها حتى إذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بيت عائشة أرسل هديته إليه عندها.

فاجتمع الحزب الشمالي إلى أم سلمة، وكانت أكبرهن وأكثرهن حظوة عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقلن لها: يا أم سلمة إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، وإنا نريد الخير كما تريد عائشة، فكلمي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكلم الناس فيقول: من أراد أن يهدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هدية فليهدها إليه حيث كان من بيوت نسائه. فلما وافى اليوم الذي يكون فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند أم سلمة قالت له: يا رسول الله إن صواحبي اجتمعوا إليَّ فقالوا: إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، وإنا نحب ما تحب عائشة، فمر الناس يهدوا لك حيثما كنت. فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يرد عليها شيئاً، فلما اجتمع إليها صواحبها سألنها: ما قال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ قالت: ما قال لي شيئاً، قلن لها: فكلميه. فلما دار إليها في يومها كلمته أيضاً فلم يقل لها شيئاً، فسألنها، فقالت: ما قال لي شيئاً. فقلن لها: كلميه حتى يكلمك. فلما دار إليها كلمته للمرة الثالثة، فقال لها: «يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة فإنه والله

ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها». فقالت أم سلمة: أتوب إلى الله من أذاك يا رسول الله.

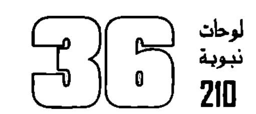
وعلم صواحبها أنها لم تكن لتراجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد ذلك، فأرسلن إلى فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى يتوسلن إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأحب الناس عنده، فكلمنها أن تأتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتقول: إن أزواجك ينشدنك العدل في بنت ابن أبي قحافة، فمكثت فاطمة أياماً لا تفعل ذلك، حتى جاءتها زينب بنت جحش فكلمتها، فقالت فاطمة: أنا أفعل. فجاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فاستأذنت عليه وهو في بيت عائشة مضطجع معها في لحافها، فأذن لها، فقالت: إن نساءك أرسلنني يسألنك العدل في بنت ابن أبي قحافة، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «زينب أرسلتك ؟». فقالت فاطمة: زينب وغيرها، فقال: «أهي التي وليت ذلك؟». قالت: نعم. فتبسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال: «أي بُنَيَّة، أليس تحبين ما أُحب؟». قالت: بلى يا رسول الله، فقال: «فأحبي هذه». وأشار لعائشة، فقامت فاطمة حين سمعت ذلك من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فرجعت إلى أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فأخبرتهن بالذي قالت، وبالذي قال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقلن لها: يا بنت رسول الله ما نراك أغنيت عنا من شيء، فارجعي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقولي له: إن أزواجك ينشدنك العدل في بنت ابن أبي قحافة، فقالت فاطمة: والله لا أكلمه فيها أبداً.

فقالَ النساء لزينب: اذهبي أنت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وذلك لقرابتها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فهي ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب، ولحظوتها، فهي التي كانت تسامي عائشة عنده..

فجاءت زينب فاستأذنت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو مع عائشة في لحافها، على الحال التي دخلت فاطمة عليه وهو بها. فأذن لها فدخلت عليه وهي غضبى، فقالت: يا رسول الله إن أزواجك أرسلنني إليك يسألنك العدل في ابنة ابن أبي قحافة. ثم وقعت بعائشة فاستطالت عليها تسبها، وعائشة ساكتة ترقب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتقرأ في ملامح وجهه وطرف عينه وقع كلام زينب، حتى رأت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينظر إليها هل تكلم؟ وعرفت أنه لا يكره أن تنتصر، وتدفع عن نفسها، فاستقبلت زينب ترد عليها فلم تلبث أن تغلبت عليها، وأفحمتها حتى يبس ريقها في فمها، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجعل يقول ووجهه يتهلل: «إنها ابنة أبي بكر». ومن مثل أبي بكر في وفور عقله، وسعة علمه، وثبات حجته، وقوة شخصيته، وهذه هي ابنته، ومن يشابه أبه فما ظلم.

●●● وها هنا وقفات:

● 1- نرى المشاعر الجميلة ظاهرة مستعلنة، فحب النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعائشة لم يكن خافياً ولا مُخفى، ولكن ظهر واشتهر حتى علم به

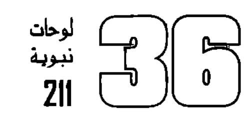


الصحابة رضوان الله عليهم، وأصبحت هداياهم تتسقط مواقع حبه.

لقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يظهر هذه العاطفة الجميلة لأنها مطلب فطري، وكمال إنساني، واستواء في العواطف والمشاعر، ولذا كان الحب في عصر النبوة يتنفس في الهواء الطلق، ثم خلفت خلوف درست فيها معالم هذا الهدي النبوي، فصار ذكر اسم الزوجة معرّة وإشهار حبها عاراً.

● 2 - أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو الذي ألقيت عليه المهابة وكان في موقع القيادة والقوامة على الأمة كلها يفسح مساحة واسعة في بيوته لحركة المشاعر وانفعالات النفوس، ولذا تكلمت أم سلمة وكررت، وناشدت زينب وغاضبت وخاصمت، وكل ذلك حراك في المساحة التي أفسحها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لهن، وقد كان يكفي في منع ذلك -لو أرد- نظرة غاضبة أو كلمة زاجرة، ولكنه لم يكن يعامل بالكبت ولا بالقهر، وإنما بالسماحة واليسر؛ ولذا تظهر المشاعر والانفعالات الوقتية في حينها، ويحتويها رفق الرسول الذي أحب الرفق وأمر به، وبهذه السماحة تشعر الزوجة بكمالها الإنساني، ولا تترسب الانفعالات المكتومة إلى أحقاد ومشاعر سلبية.

● 3 - الواقعية في التعامل مع الخطأ ووضعه في حجمه الطبيعي، فما بدر من زينب من وقيعة وسب لعائشة كان خطأ، وأن يجري أمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو في بيت عائشة وتحت لحافها خطأ آخر، وكان هذا كافياً في



إشعال حريق من الغضب والانفعال المضاد لكل من كان في مثل هذا الموقف، ولكنه صلى الله عليه وآله وسلم وضع ذلك في حجمه الطبيعي، وتفهم دوافعه، وهي الغيرة بين الزوجات والتي دافعها الحقيقي شدة حبهن له صلى الله عليه وآله وسلم، واكتفى بإعطاء المجال لعائشة أن تدفع عن نفسها، ولم يتدخل بما يصعد الموقف أو يوسع دائرة الخطأ أو يوالي تداعياته.

● 4 - لقد كانت مناشدة زوجات النبي صلى الله عليه وآله وسلم التي حملتها فاطمة عليها السلام، وكذا مناشدة زينب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لما دخلت عليه ((ننشدك الله العدل)). فهل تأملت أن هذا الكلام يوجه إلى المصطفى الذي جاء بالعدل وقام به، ومن يعدل إذا لم يعدل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهل علّم البشرية العدل إلا هو بأبي وأمي.

ثم قارن هذا الموقف بغضب النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما بلغه أن رجلاً قال عن قسمته يوم قسم غنائم حنين: إن هذه لقسمة ما عدل فيها. فاحمر وجهه من الغضب كأنه الصبغ الأحمر، وقال: ((فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟)). ولما قال له رجل: يا محمد اعدل، قال: ((ويلك ومن يعدل إذا لم أكن أعدل، لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل)).

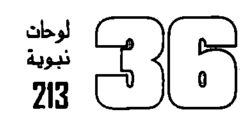
إن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الموقف مع زوجاته لم يغضب ذاك الغضب، وإنما وضع هذه الكلمة في حجمها، وتفهم بواعثها والحامل عليها، فلم يكن من أمهات المؤمنين - وحاشاهن - اتهام له في عدله وعدالته،

ولكن حملهن على ذلك الغيرة التي يحركها التنافس على الاستئثار به، ولذا لم يواجههن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بغضب، بل ولا رد عليهن هذه الكلمة ولا جادل فيها؛ لعلمه بأن معناها غير مقصود، وتفهمه لبواعثها وخلفيتها النفسية.

فما أحوجنا إلى تربية أنفسنا على إجراء الكلام على سياقته وتفهم بواعثه ودوافعه، وخاصة في بيوتنا بين الزوج وزوجه حين تبدر بعض فلتات الألسن فتفتح لها محاضر التحقيق، وجلسات الاستجواب، ويكون لها ما بعدها، مع أنها لو أجريت في سياقها مرت وما ضرت.

● 5 - لم يستجب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لطلبهن أن يأمر أصحابه أن يهدوا له حيث كان من بيوته؛ لأنه ليس من المروءة وكمال الأخلاق أن يتعرض الرجل إلى الناس بمثل ذلك؛ لما فيه من التعرض بطلب الهدية، وهو ما يتعالى عنه مقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

أما عائشة رضي الله عنها فلا ذنب لها ولا عتب عليها أن يحبها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهي أهل لحبه، وهل أدل على جدارتها بذلك من أن يزكي الله هذا الحب، فيتنزل وحيه على رسوله الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو معها في لحافها دون سواها؛ ولذا جعلها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمنأى عن العتاب، وقال لبضعته سيدة نساء العالمين عليها السلام: «أحبي هذه». وحق على كل مسلم يحب نبيه أن يحب من أحبها وأمر بحبها.



● 6 - كما أن زوجات النبي صلى الله عليه وآله وسلم كن يتحركن في مساحة واسعة أفسحها لهن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإنهن كن يتورعن أنْ يتجاوز ذلك إلى ما يؤذي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأقصرت أم سلمة عند ما قال لها: «لا تؤذيني في عائشة». وقالت: أتوب إلى الله من أذاك يا رسول الله.

● 7 - بقي أن نعلم أن أمهاتنا أمهات المؤمنين رضي الله عنهن اللاتي كان يجري هذا بينهن بحكم غلبة الطبيعة البشرية كن على غاية النقاء القلبي، فهذه زينب التي جرت منها هذه المخاصمة لعائشة رضي الله عنهما والغيرة البالغة منها تقول عندما سئلت عنها في حادثة الإفك: أحمي سمعي وبصري، ما علمت عليها إلا خيراً. وهذه عائشة تتحدث عن زينب، فتقول: لم أر امرأة قط خيراً في الدين من زينب، وأتقى لله عز وجل وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدق به، ما عدا سَورة من حدة تسرع منها الفيئة.

اللهم صلِّ وسلم وبارك على نبيك وحبيبك محمد النبي الصادق الأمين وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين.



لوحات نبوية

هذه الفصول ليست بين كاتب وقارئ، ولكني وإياك قراء لجمال لوحات الحياة النبوية، نتتبع في إيقاعها اليومي حيوية الحياة، وضخامة الإنجازات في وعاء من السكينة النفسية، والحياة الهانئة المطمئنة، تزينها أجمل العواطف، وأصدق المشاعر، وأعذب المتع.

وحينما تكثف الرؤية وتضع المشهد تحت مجهر البصيرة، فإنك ستكتشف مع هذه الزوايا زوايا أخرى، تنطق بدلالات تستوقفك لم تستوقف غيرك، ولا عجب فسيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم نهر غمر يغترف كل منه بحسب إنائه، فانظر بقلبك وحبك وإيمانك إلى لوحات الحياة النبوية لترى جمالات مبهرة تشرق أمامنا فتستنطقنا، (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)، (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ).

فلنجعل التأمل في هذه اللوحات النبوية مذاكرةً مشتركة نتعاطى فيها روائع المعاني، وعظيم الدلالات التي تفيضها على نفوسنا، فإن مساحة الرؤية واسعة، وزوايا النظر متعددة، ولئن قرأت بعض ما رأيتُه فإني مشوقٌ أن أفيد منك ما رأيتَه، فذاك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحب الخلق إلى قلوبنا، وأجلهم في عيوننا، وأعظمهم حقاً علينا، الحديث عنه أعذب الحديث، والخبر عنه أجمل الخبر.

عبد الوهاب بن ناصر الطريري

ALTRIRI@hotmail.com

إنتاج مؤسسة الاسلام اليوم

المملكة العربية السعودية

الرياض

ص.ب. 28577

الرمز : 11447

هاتف: 012081920

فاكس: 012081902

www.islamtoday.net

info@islamtoday.net



